دراسة بلاغية للأبعاد الحِجَاجية في الخطاب النبوي
الصورة أنموذجًا

د/ عزة أحمد مهدي علي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد – جامعة الأزهر
أستاذ البلاغة والنقد المشارك – جامعة القصيم

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النعمة المهداة ، الصادق الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد:

يتجه هذا البحثُ إلى رصدِ الأبعادِ الحِجَاجية في الخطاب النبوي عامة ، في ظل اهتمام الدرس البلاغي واللساني الحديث بدراسة تقنيات التأثير والإقناع ، ثم التطبيق على الصورة في الخطاب النبوي لما لها من طاقات حِجَاجية لها خصوصيتها نابعةً من خصوصية المحاجج – صلى الله عليه وسلم- ومن مقام النبوة ، والإبلاغ ، المنوط به ؛ ساعيةً إلى استجلاء الأبعاد الحِجَاجية التي اعتمدها – صلى الله عليه وسلم – لترسيخ معتقد ، أو استبدال مفهوم أوتعديل سلوك ، أو دحض رأي أو شبهة ، ناظرةً إلى الحجة من منظورٍ تفاعلي يصلها بسياقاتِ التداولِ ، ومقاماتِ التواصلِ .

و يرجع السببُ في اختيار هذه الدراسةِ لما نجدهُ اليومَ من تحولاتٍ شديدةٍ في المجتمعِ الإنساني ، تسعى فيه قوى خفيةٌ إلى تغليبِ أنظمةِ التواصلِ الموازية على اللغة والخطاب التقليدي مما أثر سلبًا على علاقة الإنسان بالآخر وتغلبت الصورةُ بجميع تشكيلاتها على العقل البشري ، فأصبح ينجذب فقط نحو المؤثرات المادية المحسوسة ، وضاقت حدودُ الحوار والجدل والمحاججة الهادئة العاقلة ليحل محلها التفاعلُ الجسديُّ والصوتي الذي يؤدي غالبًا إلى العنف البدني واللغوي.

انطلقت هذه الدراسةُ لتبحثَ قيمةَ الخطاب القائمِ على الحجة والإقناع بوصفه عملًا عقليًا له آلياتُه البلاغيةُ اللغويةُ والفلسفيةُ الموصلةُ إلى المراد بغيةَ التأثير والإقناع ، ليعيدَ للعالم إنسانيتَه المفقودةَ .

واتخذت من الصورة في الحديث النبوي أنموذجًا ؛ لما في التصوير من طاقاتٍ حِجَاجية تسهم إلى حدٍ كبيرٍ في التأثير على عقل المتلقي ونفسِه ، وتوجهُهُ نحوَ المرادِ بقناعةٍ تامةٍ .

ومن هنا كان الهدفُ من الدراسة : الكشفُ عن الأبعادِ الحِجَاجية للصورةِ في الخطابِ النبوي ، وبيانُ قيمتِه الحِجَاجية من خلالِ آلياتِه اللغويةِ والبلاغيةِ ، وإظهارِ علاقةِ الخطابِ بالمجتمع، والموروثِ الفكريِ والثقافي ؛ إذ ليست اللغةُ مجردَ مفرداتٍ حديثةٍ قائمةٍ بذاتِها ، ولكنها علاقاتٌ متداخلةٌ ومتشابكةٌ ، فالنَّصُ نسيجٌ متكاملٌ يتداخلُ فيه إيقاعُ الذَّاتِ ، وإيقاعُ البيئةِ والمجتمع والثقافة.

ومنهج البحث هو المنهج الوصفي القائم على رصد الصور ،
و استنتاج الأفكار من المعطيات الخطابية متجهة إلى استنطاق النص الخطابي للوصول إلى البعد الحِجَاجي للصورة في كلٍّ منها .

والأبعاد الحِجَاجية للصورة بالمفهوم الحديث ، هي الإطار العام الذي بني عليه هذا البحث في الخطاب النبوي وسيأتي تقسيم البحث بحسب نوع التصوير إلى تمهيد ؛ تليه الأقسام الآتية :

ـ البعد الحِجَاجي للتصوير :

- بالوصف
- بالقصة
- بالموازنة
- بالتشبيه
- بالمجاز
- بالكناية

- ثم خاتمة تشمل أهم نتائج البحث ، مشفوعة بثبت بأهم مصاد البحث ومراجعه .

وقد حاولت الإيجاز فذكرتُ بعضَ الأحاديث التي تبرز الغرضَ وتتجهُ للهدف ، رغم أن الحديث في هذا الموضوع مشوق ويأخذ بالقلب والعقل ، ونظرًا لضيق المقام اكتفيت بما اشتملت عليه هذه الدراسة. والله الموفق والمستعان .

تمهيدٌ :

امتاز الخطابُ النبوي بغناه الأسلوبي والدلالي ، ما جعله محورَ التصنيفات البلاغية قديمًا وحديثًا ، وتعددت المصطلحات تبعًا لمنظور الدراسة ، فكانت نظرية الحجاج أو ما سمّي (البلاغة الجديدة) إحدى تلك النظريات التي تمتد أصولها في البلاغة القديمة [1]، وما ذلك إلا استعادةً للبعدِ التداولي المفقود منها[2]، فالبلاغةُ لا تُعنى فقط بشكلِ الخطابِ وقيمهِ الجماليةِ ،بل بغاياتِه التأثيريةِ والإقناعيةِ.

الحِجَاجُ لُغةً :

ذكر ابن منظور : " حاجّه محاجّةً وحِجاجًا : نازعه الحُجة. وحجَّه يحجُّه حجًّا : غلبه على حُجَّتِه.

واحتجَّ بالشيء : اتخذه حُجّة ، والحُجَّةُ : الدليلُ والبرهانُ ، يقال : حاججته فأنا محاجٌّ وحجيجٌ[3].

وقال الأزهري : الحجة : الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وإنما سميت حجة ؛لأنها تُحجُّ أي تُقتصد ؛ لأن القصد منها وإليها ، وكذلك محجة الطريق هي المقصد والمسلك[4].

ويفرق أبو هلال العسكري بين الجدال و الحِجَاج بأن المطلوب من الحِجَاج هو ظهور الحجة[5]

الحِجَاجُ اصطلاحًا :

تنوعت التعريفات التي قدمت لمصطلح الحِجَاج وفقًا للحقل المعرفي ، ولا تكاد تخلو كتب الفكر العربي وخاصة ذات الطابع الجدلي والفلسفي من مصطلح الحِجَاج والاحتجاج والمحاجَّة والحُجَّة

الحِجَاجُ عند الأصوليين :

اهتم علماء الأصول بالحِجَاجِ ؛ لأنه منبع كل ما هو لغوي ،ولكون العمل الأصولي يستلزم دليلاً لما يُستنبط من أحكام شرعية من النصوص القرآنية ؛للعمل به والتقيد بمضامينه ؛ أي حُجَّة ذلك الحكم ؛ ليحمل السامع على المقصود بما في ذلك الحكم الشرعي ، ولذا راعوا في ذلك ما يتعلق بالسامع والقارئ أثناء دراسة الخطاب الشرعي ، وهو ما عبَّر عنه البلاغيون بـــمقولة : " لكلِّ مقامٍ مقالٌ" ، كما أنهم درسوا العناصر السياقية والمقامية للخطاب ؛ لأن الألفاظ لا تثبت على معانيها التي وُضعت لها ، فللمتكلم أن يستعمل الألفاظ في حقيقتها أو وفق أساليب اللغة وقوانينها المعروفة للسامع والمتكلم[٦].

والأصوليون – وهم يعتمدون أساسًا على تحليلهم للخطاب الشرعي ، وعلى البحث في علاقته بالسامع ومراعاة المقام وسبب النزول – أثْروا البلاغة العربية قديمًا وإلى هذا الوقت الذي أطلقوا عليه البلاغة الجديدة أو الدرس اللغوي المعاصر وتحليل الخطاب ؛ فالقياس التمثيلي ، وأصنافه ومقابلته بالاستدلال البرهاني والصوري والأخذ بقياس التمثيل كلُّ ذلك يعدُّ ممارسةً عقليةً إقناعيةً حِجَاجية تزاوج بين النزعة الدينية والعقلية العلمية اللسانية الأدبية، ، وكان اهتمامهم بالسامع من حيث إنَّ "المخاطِب يتنوع في الخطاب ، وتتنوع الأحكام تبعًا له[٧]".

ـــــ الحجاج عند المفسرين :

اهتم المفسرون بالنص القرآني ، بتفسير آياته وألفاظه وتناسب الآيات وأسباب النزول، وتكمن علاقة المفسرين بالخطاب الحِجَاجِي في : "أن القرآن بوصفه كلامًا دالًا على ذاته ودالًا على مبدعه، يضع نفسه في قلب التواصل اللساني ؛ فعملية الكلام في الخطاب القرآني تحتوي على عناصر التواصل الثلاثة : المتكلم ، والمستمع ،والخطاب ، وهو يتضمنُ دلالةَ الكلام على مُنْشِئِه ، ودلالةَ الكلام على ذاتِهِ ،ودلالةَ الكلام على متلقيه ، مع الأخذ في الحسبان جلال المرسِل في الخطاب القرآني[٨]".

ومن المباحث التي اهتم بها المفسرون و التي تدخل في النظرية الحِجَاجية ؛ تناسب الآيات ، وأسباب النزول ، وهو ما يطابق في البلاغة العربية " لكل مقام مقال " ويطابق " مناسبة خطاب المتكلم لموقف السامع" في اللسانيات المعاصرة، والهدف المرجو من هذا هو

إقناع المتلقي بما ورد في النص القرآني من جهة ، كما أن سبب النزول يتحكم في عمليتي إنتاج الخطاب وتلقيه من جهة أخرى ، مع مراعاة حال المتلقي والظروف المحيطة ،وفي هذا مراعاة للسياق ومعرفة القرائن المعنوية والحالية والعلم بأحوال البشر، وكلها أمور حِجَاجية تقتضي النظر والتفنيد.

ـــــ الحجاج عند علماء الكلام :

للحِجَاجِ عند المتكلمين معانٍ كثيرةٌ وهو عندهم يرادف الجدل،ويعرفه الزركشي بقوله : "هو الاحتجاجُ على المعنى المقصود بحُجَّةٍ عقليةٍ تقطعُ له المعاندَ فيه"[٩]فالحِجَاجُ يظهر في إفحام المستمع المجادل باستخدام الحُجَجِ العقلية.

ويعرفه "ابن حجة الحموي" بقوله : "هو أن يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية ،يتضح نسبتها إلى علم الكلام إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة[١٠]".

وهكذا نجدُ المذهبَ الكلامي في بعده التَّواصلي الإقناعي لوناً من ألوان الحجاج ، يعمد فيه المتكلم إلى إلزام خصمه، وإقناعه بالحجج والبراهين العقلية ، كما يتجسد الارتباط الوثيق بين ماهية المذهب الكلامي ، والحجاج البلاغي في بعده الخطابي ، مما يومئ بمصادر البلاغة العربية ومنطلقاتها واتجاهاتها المختلفة النحوية ، والخطابية ، والحِجَاجِية .

هذا .. وتتقاطع تعريفات المتكلمين للحِجَاجِ مع ما يُقدّم اليوم في الدراسات اللسانية الحديثة ، مما يشير إلى الارتباط والتوافق مع تعريفات الحِجَاج في البحث الجديد للنظرية الحِجَاجية .

وقد عالج طه عبد الرحمن[١١] المنهج الكلامي في ممارسة المتكلمين ، فأثبت قضيتين مفادهما :

١- أن الخطاب الكلامي والفلسفي التداولي لا يختلفان من حيث شروطهما الاستدلالية.

٢- أن علم الكلام يتصف بخصائص تداولية لا تشاركه فيها الفلسفة البرهانية، كما عالج الاستدلال الكلامي في صورة القياس من زاوية التحليل الخطابي فحدد مسلماته وعملياته وقواعده البيانية[١٢].

ومما لاشك فيه أن حاجَةَ المتكلمين للحِجَاجِ وآلياتِه ضروريةٌ ؛ ذلك أن التسلح بالوسائل الحِجَاجية البلاغية واللغوية تمثل القوة في مواجهة مزاعم المشبهين ، والمتناولين للمتشابه من القرآن الكريم من جهة ، ولمقارعة الفرضيات المضادة التي يقدمها الخصوم من جهة ثانية[١٣].

وقد اجتهد المتكلمون — قدر استطاعتهم – في الدفاع عن النص القرآني ،من خلال : بيان انسجام النص القرآني ، وإظهار حكمة ما قد يبدو من اختلاف أو مفارقات، ويُعد كتاب " تأويل مُشْكل القرآن" لابن قتيبة ،أفضل الكتب بيانًا لهذا المستوى الفكري[١٤] ، الذي يمثل انتقالًا من المجاز اللغوي إلى التنزيه الكلامي[١٥].

و هكذا فإنَّ التواصلَ الإنساني قائم على الحِجَاج إلى حد أن المرء ليسلم بألَّا تواصل تخاطبي بدون حجاج ، حيث تقتضي هذه العملية (التخاطب) مخاطِب(يدعي) ، ومخاطَب (يعترض) ، مما أعطى مشروعية الدراسات الحِجَاجية ، فضلًا عما فرضته الحقول المعرفية من نضج في العقود الأخيرة خاصة الدراسات المنطقية واللسانية وغيرها.

فالحِجَاج في البلاغة " مكَوِّن من مكونات الخطاب ، يتشكل بتشكله وتتغير وظائفه وطرقه الاستدلالية بتغيره[١٦]" ويذكر (التهانوي) في كشافه أن الحُجَّةَ الإلزاميةَ هي المركبة من المقدمات المسلّمة من الخصم المقصود منها إلزام الخصم وإسكاته[١٧].

ويرى (برلمان وتيتيكاه) أن نظرية الحجاج تعني : درسَ تقنياتِ الخطابِ التي من شأنها أن تؤثرُ في المتلقي وتؤدي به إلى الإذعان والتسليم أو الزيادة في درجة التسليم بما يعرض عليه[١٨]، ويعتمد ذلك على قدرة المتكلم على بناء نَصٍ حِجَاجيّ تتوفر له آلياتُه اللغوية والبلاغية والمنطقية للإقناع.

وعليه فإن الخطاب النبوي الشريف لا يخلو من بعد حِجَاجي ؛ فهو منهج إصلاحٍ ، يهدف إلى تغيير وضع قائم، بالحجة والإقناع، انطلاقًا من توظيف آلياتٍ حِجَاجية كعناصر الصورة ، لما تتمتع به من طاقة حِجَاجية تسهم إلى حد كبير في التأثير على عقل المخاطب ونفسه، ومن ثَم توجيهه نحو النتيجة المرجوة توجيهًا يجعله مقتنعًا بها.

وهنا يأتي السؤال الذي يجيب عنه هذا البحث : كيف تُوجَّه معاني الخطاب النبوي الشريف توجيهًا حِجَاجِيا عن طريق التصوير؟

أو كيف نستدل على وجود أبعاد حِجَاجية للصورة في الخطاب النبوي ؟

وللإجابة عن تساؤلات البحث ، ينبغي الدخول أولاً إلى مفهوم الصورة .

يمثل مصطلح " الصورة" بين الفكر البلاغي القديم ، والنقد المعاصر مشكلة ، وتشابكًا من حيث المفهوم والأنماط ووسائل التشكيل والأثر النفسي ، وقد زادت المشكلة تعقيدًا في النقد المعاصر ومذاهبه ، ومناهجه المتباينة فكرًا ؛ حيث أضفى كل منهج درَس الصورة واعتمد عليها في تحليله العميق على مفهومها ، ومنحها بعدًا نقديًّا جديدًا ، فحملت الصورة ملامح المنهج ومفهومه الخاص ، فكانت له سماتٌ محددةٌ في أكثر من مجال من مجالات المعرفة الإنسانية في الدراسات اللسانية ، واللغوية ، والفلسفية ، والرمزية ، والبلاغية أو الفنية"[١٩].فالتعريفاتُ التي قدمتها كتبُ النقد الحديث بتأثير من مناهج غربية لا يمكن حصرها ، و لم تعد الصورة في النقد الحديث مجردَ التشبيه أو الاستعارة أو المجاز ؛ بل هي لوحة مصنوعة من الألفاظ ، وبالتأكيد للاستعارة والمجاز دورهما في رسم الصورة، ولكن من الممكن أيضًا أن تصنع العبارات الوصفية صورًا رائعة تحمل إلى مخيلتنا أكثر من الانعكاس الحرفي للحقيقة الخارجية ،فالصورةُ وثيقةُ الصلة بملكة الخيال ولا تقتصر على الدلالة البصرية المحدودة.[٢٠]

ولعل الإمام عبد القاهر الجرجاني أوَّلُ من عبر عن فهمٍ عميقٍ لماهيةِ الصورةِ الفنيةِ من خلال منشأها النفسي، بوصفها مُجَسِّمَةً للمخزون العاطفي والفكري؛ فقد أعطى لصورة المعنى ومعنى المعنى رؤيةً جديدةً في عصره؛ فلم يتعمق أحد من النقاد العرب القدماء كالجرجاني في فهم الصورة ، فالصورةُ لديه شريكةٌ للنظم أو التأليف في إنتاج بلاغة الكلام سواء أكان إفرادًا أو تركيبًا[٢١].

ـــــــ مصطلح البعد الحِجَاجي :

يصنف هذا المصطلح ضمن حقل تحليل الخطاب ، وهو" وليد تصوُّرٍ لا يقصُر أصحابه الحجاج على تقديم حججٍ تدعم أطروحةً أو تدحضها ، وإنما يرون أنه من الممكن النظر إلى الحجاج من زاوية أوسع ، وفهمه بوصفه خطة تستهدف التأثير في رأي شخص ما ، وفي موقفه وحتى في سلوكه[٢٢]".

وأما مصطلح الخطاب فيتلخص في أنه " كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء أكان مكتوبًا أو ملفوظًا ، وكما عرفه (غرايس) بأن يكون للكلام دلالاتٌ غير ملفوظة ، يدركها المتحدثُ والسامعُ دون علامةٍ معلنةٍ أو واضحةٍ[٢٣] ؛ ولذا سينطلق التحليل للأبعاد الحِجَاجِية في الخطاب النبوي المشتمل على الصورة من خلال استنباط القواعد التي تحكم هذه الاستدلالات أو التوقعات الدلالية التي ترتبط غالبًا بالظروف الاجتماعية والثقافية والعرفية .

وفيما يلي تحليل للخطاب النبوي للكشف عن الأبعاد الحِجَاجِية للصورة :

- أولًا: الأبعاد الحِجَاجِية للتصوير بالوصف :

التصوير بالوصف ليس مجرد تصوير آلي ، ولكنه تصوّر إدراكي ، يحمل إلى جانب موضوعيته قدر كبير من ذاتية المتكلم ورؤيته.

ويعلو شأن الوصف في التصوير عندما يكون الموصوف أمرًا غيبيًّا لا سبيل إلى نقله إلا عن هذا الطريق الذي يتخيله المتلقي واقعًا ملموسًا يراه رأي العين.

ويحمل الخطاب النبوي لوحاتٍ وصفيةً رائعةً تُعجز بحجيتها ورسم ألفاظها وتراكيبها ريشة أي فنان كائنة ما كانت مكانته .

فلنتأمل ذلك البعد الحِجَاجِي في وصفه (صلى الله عليه وسلم) للصّرعة :

- عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :" ما تعدُّون الرَّقوب فيكم؟" قال: قُلنا: الذي لا يولد له. قال:" ليس ذاك بالرقوب ، ولكنه الرجل الذي لم يُقدِّم من ولدِهِ شيئًا" قال:"فما تعدّوُن الصُّرَعة فيكم؟" قالوا : الذي لا يصرعه الرِّجال . قال:" ليس بذلك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب[٢٤]".

يطرح الخطاب النبوي قضية تتعلق باللفظ وكيفية استخدامه ، أو لتصويب استخدامه لدى المخاطب ، ف (الرَّقُوب) : يقال للمرأة التي لا يعيش لها ولد، فهي ترقب موت ولدها ويطلق على الرجل والمرأة[٢٥] ؛ فكأن النبي (صلى الله عليه وسلم)،- وهو يعلم هذا المعنى لديهم- يريد أن يشير به إلى فضيلة هذا اللفظ نفسه ولكن في دلالته على معنى آخر " الرجل الذي لم يقدِّم من ولده شيئًا "، يقول النووي – رحمه الله- أي :" إنكم تعتقدون أن

الرقوب المحزون هو المصاب لموت أولاده ، وليس هو كذلك شرعًا، بل هو من لم يمت له من أولاده في حياته فيحتسبه ، يُكتب له ثواب مصيبته به ، وثواب صبره عليه ، ويكون له فرطًا وسلفًا[٢٦]".

هذا التصوير الوصفي للفظة الرقوب ، يلفت به النبي(صلى الله عليه وسلم) الانتباه إلى فضل موت الأولاد ، والصبر عليهم ، وإنه لفضل عظيم عند الله للمرء الذي شهد موت ولده. إذ المصيبة أكبر وأقوى من المعنى السابق للفظ ، فقد يحزن المرء لعدم الذرية ،ولكن له من الله تسلية وسلوى :" الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا[٢٧]" ولكن الحزن الأكبر ، وعليه الثواب الأعظم حين يرى موت ولده في حياته ، حينها يكون جزاء الصبر والاحتساب الذي يرزقه الله للعبد وقتئذ.

إنه تصوير لمفهوم جديد، وعلى الرغم من تقارب المعنيين إلى حدٍ ما إلا أن المعنى الجديد، يدعو إلى الانتباه إلى من يشعر بحزن أكبر، وفقد أعمق وأعظم وأقوى على القلب تحمله. فيحمل هذا الوصف النبوي للرقوب ، بُعدًا حِجَاجيا ، يؤثر من خلاله على قناعة المتلقي للخطاب بالمساحة المتروكة لإعمال ذهنه ، والتدبر في المعنى الجديد.

كما يحمل وصف الصُّرَعَة في الحديث بُعدًا حِجَاجيا يُقصد من خلاله إقناع المخاطب (المباشر والافتراضي) بمفهوم جديد للصُّرَعَة ، وهو مُصارعة النفس عند الغضب للسيطرة عليها ، بدلا من مصارعة الآخر بالقوة والغلبة (وقت الغضب)

إنه تحويل كامل لمفهوم ثابت لدى المخاطب ،وتأصيل لمصطلح جديد ، فمغالبة النفس هي الأوْلى بالمصارعة والمنجية من سوء عاقبة اتباع هوى النفس.

استخدم الخطاب النبوي في اللفظين السابقين (الرَّقُوب ، والصُّرَعَة) آلية التصوير بالوصف ، فتركهم يصفون بأنفسهم معنى اللفظة ويطرحون فكرهم ،ولم يكن مبادرًا بفرض المفهوم الجديد عليهم ، حتى إذا ما انتهوا إلى المعاني المتداولة بينهم ، إذا به (صلى الله عليه وسلم) يأتي بوصف جديد مستعينًا في تصويره لهذا المعنى بآلياتٍ حِجَاجية : فالاستفهامُ : (ماتعدون الصُّرَعَة فيكم)؟ هو فعل خطابي يستلزم قوةً خفيةً ، هي تشويقُ

المخاطب إلى المشوق إليه ، حتى إذا ما ورد، استقر في النفس وتمكن واقتنعت به ، وهذا ما يجعل المتلقي يقبل على الخطاب المنتظَر بشغف .

وهو مدخل للحوار ، واستراتيجية ذكية ؛ لا تنفّر المخاطب ، بل تستدعيه طواعية في شوق وشغف للأخذ والرد وتلقي الخطاب الجديد ، إذ من الطبيعي أن يسأل السائل؛ ليعلمَ ما لا يعلم، أو ما يريد أن يعلم ، وهذا هو الأصل في الاستفهام، أمَّا أن يعمدَ المتكلم إلى الإعلام بطريق السؤال، فهذا إبداع فني، وهو ما يؤكِّد أنَّ فنيَّة اللغة المستعملة أكبرُ من أن تُقَنَّنَ في قواعدَ وأصول.

أما الحوار فيشير التعريف اللغوي للجذر (ح و ر) إلى عدة دلالات منها : الرجوع عن الشيء وإليه ، و هذه الدلالة تقترب من لفظ (حوار) التي تفيد التحادث والتجاوب القولي ، والمفاعلة ، فالمحاورة: المجاوبة ، واستحاره : استنطقه[٢٨]"، والمحاورة : حُسن الحوار ، فهي تتضمن دلالة خُلقية تتعلق بكيفية الحوار وأدبه ، إذ يستلزم هذا الحوار طرفين أو أكثر ، ولا يتم إلا في جو أدبي يتيح الأخذ والرد بين المتحاورين، وقد تتسع دلالة الحوار لتشمل المجادلة[٢٩]، والجدال يعطي الفرصة للقول والرد بين المتحاورين. وهكذا كان سبيله (صلى الله عليه وسلم) لتأصيل مفهوم إسلامي جديد .

- ثم النفي أثناء المحاورة بقوله : " ليس ذاك ، وليس بذلك " تشويق جديد يزيد شغف المتلقي ويعلو استشرافه إلى المفهوم الجديد من معلم البشرية (صلى الله عليه وسلم) .

هذا.. وللنفي الحِجَاجِي دور بارز في الخطاب النبوي ؛ إذ النفي في عرف المناطقة " هو العامل الذي يحوّل القضية الصحيحة إلى قضية خاطئة و الخاطئة إلى صحيحة [٣٠]"و هو في الدرس اللغوي غير بعيد عن هذا المعنى، إذ يعرفه ابن يعيش بأنّه : إكذاب ، يقول: " اعلم أنّ النفي إنّما يكون على حسب الإيجاب ؛ لأنّه إكذاب له فينبغي أن يكون على وفق لفظه لا فرق بينهما إلاّ أنّ أحدهما نفي و الآخر إيجاب[٣١] " وفي اعتباره" إكذابا" توجيه للملفوظ و للمتلقي نحو النتيجة التي يجب أن يصدّق بها المتلقي قصرًا. إذ محتوى القضية بلفظها لم يتغّير سوى النتيجة من جراء سلطة عامل النفي

عليها، لذلك قال " فينبغي أن يكون على وفق لفظه لا فرق بينهما" و لكن يوجد على الأقّل فرقان بين اللفظين (المثبت منهما و المنفي) أوّلهما شكليّ و يتمثّل، في حالة النفي، في صدارة العامل، في مستوى الحيّز النطقي أو الكتابي الدّاخل على القضية مثال:يُفلحُ الظالمون "لا يُفلحُ الظالمون[٣٢]"، و الثاني مضموني ويتمثّل في حصول المفهوم من النفي. فلئن كانت جملة " يفلح الظالمون" ممّا يمكن أن يقال على الابتداء، و العمل اللغوي فيها هو الإثبات ، إثبات" حقيقة" يؤمن بها طرف معيّن فإنّ قوله تعالى: " لا يفلح الظّالمون" في الآية المذكورة العمل اللغويّ فيها هو النفي ، نفي الخطاب الذي جاء يقيم " الحقيقة" المشار إليها وإثبات عكسها الذي هو المفهوم من النفي.

غير أنّ النفي قد ينشأ عنه مفهوم مخالفة في غير سياق التكذيب و الإكذاب أو الرد على الخصم و تبكيته و إنّما يكون ذلك المفهوم الذي تؤدّي إليه بنية النفي من قبيل الأحكام المستفادة على وجه الاستلزام من الكلام المنفيّ المقيّد بصفة أو ما في معناها[٣٣] ، وهذا ما استخدمه الخطاب النبوي في حواره الحِجَاجِي بطريق نفي معتقد المتلقي دون تبكيت أو تكذيب ، وإنما ألقى إليه مفهومًا جديدًا ، يمحو به المفهوم السابق على سبيل المبالغة ، وإلا فاللفظ يصلح للمعنيين ؛ القديم منهما والجديد.

- أسهمت بنية التضاد بين المضارع المنفي للصُّرَعَة (الذي لا يصرعه الرجال) إشارة إلى قوته وغلبته في الخصومة. وبين المضارع المثبت للمفهوم الجديد (الذي يملك نفسه عند الغضب) ، أسهمت هذه البنية في رسم الصورة الوصفية أمام المخاطب ، لتترك الحديث بعد ذلك مفتوحًا لخيال المتلقي وإقراره بالمفهوم الجديد مقتنعًا بأفضليته على الموروث لديه ، حيث يوازن في الصورة بين متناقضين كليهما في وقت الغضب ،فالزمن واحد لكن شتان بين من يصرع بقوته ومن يملك نفسه وشتان بين النتيجة المترتبة على كلٍ.

لقد ترك الخطاب النبوي في نفس المتلقي صراعًا من نوع آخر، هو صراع النفس؛ لمحاولة السيطرة على نزعاتها .

وبهذا الحجاج السلبي أو المنفي ، أبطل الخطاب النبوي مصطلحًا مستقرًا ليحل محله هذا المفهوم الجديد للفظ المذكور. إنه تغيير في فكر أُمّة وتحويل نزعاتها ونظرتها من الشخصية إلى المجتمعية العامة، من خلال لغة سهلة الألفاظ ، عميقة المعاني .

وقد استوفي الخطاب النبوي السابق قانوني الشمولية، والإفادة[٣٤] في الخطاب، حيث أحاطت جمله بجوانب الموضوع وأطرافه ،مع إفادة المخاطب بمفهوم جديد يثري بها معلوماته، ويدرك منها مواضع استعمالها، وترك فضاء يتدبر فيها المخاطب المفهوم الجديد ويختبره ، ويوازن بين السابق واللاحق.

ومن ذلك ، – عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: " أتدرون ما المفلس؟" – قالوا: المفلس فينا من لا درهم ولا متاع . قال:" إن المفلسَ من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة و صيام و زكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناتِه ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناتُه قبل أن يُقضَى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار[٣٥]".

بطريق الحوار أيضًا يأتي الخطاب النبوي في صورة وصفية تحقق بعدًا جديدًا يقنع المخاطبين بترك الآثام ؛ للحفاظ على حسناتهم التي سرعان ما يكتسبها المسلم ، وسرعان ما يفقدها إذا لم يملك نفسه ولسانه عن الوقوع في الموبقات.

ففي هذا الوصف الرائع لمعنى المفلس في الإسلام ، والتقبيح من المفهوم الجديد الدال عليها استخدم الخطاب النبوي آلية حِجَاجية تعتمد على الحوار ؛ التي من شأنها جذب المتلقي نحو المتكلم ، والإبقاء عليه حتى النهاية دون ملل ، فهو مشارك فاعل في الحوار ، وهو الذي سيصل إلى الاقتناع والتسليم بالحجة عن رضا.

وكما في الحديث السابق يبدأ الحوار بالاستفهام الذي يفيد استنطاق المخاطب وتقريره ثم تشويقه ، وجذب انتباهه ، لمعرفة سبب الاستفهام عن هذا الأمر ، فاستراتيجية الخطاب المبنية على الحوار المتكافئ ، وعدم تعمد تخطئة المخاطب يجعل المتلقي يقبل على الكلام بلا تحفظ أو ريبة أو نفور ورفض مسبق.

لقد استدرجهم الخطاب النبوي بهذا الحوار ، ليبث فيهم المفهوم الجديد للفظ المتداول بينهم ، ويدحض المصطلح القديم المألوف بطريق ذكي بعيدا عن القهر والغلبة ، مستخدمًا التأكيد ب(إن واسمية الجملة) ليدفع به استنكار الخبر الجديد الملقى عليهم بعده ، ثم اسم الفاعل (المفلِس) آلية لغوية من آليات الحجاج تؤكد أن المفهوم الجديد اللاحق هو الذي ألحقه بنفسه ، وهو وحده الذي يجني نتيجته؛ فكما أن المفلس من المال والمتاع يكون نتيجة سفه وقهور يتحمله الشخص بنفسه ، فكذلك المصطلح الجديد ، يتحمل الإنسان بنفسه نتيجته ، وهو لا يبتعد كثيرًا عن السفه والتخلي عن ضوابط النفس التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم .

إن إضافة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الأمة إليه ، لَشرفٌ ، وخصوصية ينبغي أن يراعيها من ينتسب إلى أمته (صلى الله عليه وسلم) .

عرض الخطاب النبوي هذا المعنى بحجة قوية ، وهي تسمية فاقد الحسنات المطروح عليه سيئات غيره (مفلسًا) ، وهو لفظ تنفر منه النفس البشرية، بل وتخشاه .

يقول الإمام عبد القاهر:" ذاك أنه (صلى الله عليه وسلم) بين الحكم في الآخرة . فلما كان الإنسان إنما يُعَدُّ غنيا في الدنيا بماله ، لأنه يجتلب به المسرة ويدفع المضرّة، وكان هذا الحكم في الآخرة للعمل الصالح، ثبت لا محالة أن يكون الخالي- نعوذ بالله من ذلك- هو المفلس؛ إذ عَرِي مما لأجله يسمى الخالي من المال في الدنيا " مفلسا[٣٦]".

وبهذا يصل الخطاب النبوي إلى البعد الحِجَاجِي المراد اقناع المتلقي به ، وهو الإقلاع عن الآثام ، ودفعهم إلى تجنبها في سلوكهم ؛ للحفاظ على حسناتهم التي اكتسبوها في دنياهم ؛ حتى لا تأكلها النار ثم تأكله ، مستوفيًا لقانون الإخبار والاستيفاء الذي يخضع لقدرة المتكلم ومعارفة واهتماماته ، وإلمامه بطبيعة الموضوع المتحدث عنه [٣٧] فضلا عن التكرار الذي يحاصر به المتلقي بغية التأثير فيه واقناعه بالمفهوم الجديد الذي يوسع دائرته ، ويزيد عليه ويفرِّع عنه ؛ ليشمل كل ما له علاقة بالمعاملات البشرية وخطورة التهاون فيها.

ومن الحجاج المثبت المباشر :

- عن النواس بن سمعان الأنصاري قال : سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن البر والإثم فقال : " البرُّ حُسن الخُلُق , والإثم ما حاكَ في صَدرِكَ وكرِهتَ أن يطَّلعَ عليهِ النَّاسُ[٣٨]".

الصورة الوصفية هنا تحمل بُعدا حِجَاجيا مختلفًا ، فقد بادر المخاطب بالسؤال ، وهذا هو الأصل في الاستفهام، "فمن جَزِع من الاستبهام، فَزِع إلى الاستفهام[٣٩]".إذن فهو دلالة على غياب المفهوم والمصطلح للفظ في ذهن السائل ، ولم يكن مستقرًا معناهما في إلفه.

ولذا جاء الخطاب النبوي مباشرًا ، وواضحًا وصريحًا ،مفعِّلا لقانون (الوجاهة والفصاحة[٤٠])، وهو من جوامع كلمه (صلى الله عليه وسلم) ، يثبت من خلال وصفه لمعنى البر والإثم خصالًا وقِيَمًا ينبغي أن يتحلى بها المرء بوجه عام والمسلم الحق بوجه خاص،ورُغم قلة الألفاظ إلا أن المعاني تتدافع وتتداعى خلفها ، تاركا للمتلقي تصور كل الصفات الخلقية الحميدة ، وأثرها على الفرد والمجتمع ، كما يتصور مدى ما تسبب الآثام من مفاسد خلقية على الفرد والمجتمع من فوضى ومفسدة وانحلال، والضابط : " ماحاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس".

فـــ (الإثم) : الذنب[٤١]، وهو مطابق معنوي للبر ؛ فمرتكب الذنب يأثم صاحبه [٤٢].

أما البر فهو الصلة ، والصدق والطاعة [٤٣] ، وضده العقوق[٤٤].

ولفظ (الإثم) يدل على البطء والتأخر[٤٥]، وهي كلمة دالة على احساس نفسي للآثم بأنه متخلف ومتأخر عن غيره؛ نتيجة بعده عن الصواب واتباع الشهوات.

وهذا الوصف الحِجَاجِي للبر والإثم يجعل من الإنسان حَكمًا على نفسه ، وذاته ، وأفعاله.

إذن هذا هو المقياس الذي تقاس به الأفعال الصالحة والطالحة ، أنت حكم على نفسك وأفعالك ، فالحلال بيّن والحرام بيّن ، وفي كل الأحوال الله مطلع على دواخلك "لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[٤٦]"، وما دام كرهت أن يطلع عليه الناس

فاتهم نفسك ، وضعها موضعها الذي تستحقه، إما بعقد النية على الإصلاح والرجوع ،وإما بالإصرار والكبر والتعنت ولا تلومن إلا نفسك..

وهكذا.. ففي الصور الوصفية السابقة يقرر الخطاب النبوي حقائق ، ويضع ضوابط جديدة لمفاهيم غائبة ،أو مغلوطة ، ويلعب الأسلوب دورًا في الإقناع ،حيث يستخدم الحوار ، والتشويق عن طريق الاستفهام ،والنفي، والإثبات، والرد المباشر المفتوح على معان متعددة ، يترك فيها للمتلقي مساحة يعمل فيها ذهنه ، ويدير من خلالها ذاته ، ويحكم لها أو عليها.

- ثانيًا : الأبعاد الحِجَاجية للتصوير بالموازنة :

ترد الموازنة كثيرًا في الخطاب النبوي ، حيث يجمع هذا الأسلوب بين الإمتاع والإقناع ؛ فالإمتاع يأتي من تلك الصورة التي تربط بين المعلوم لدى المتلقي ،والجديد الذي يدركه لأول مرة .

أما الإقناع فلأن الموازنة تجعل الإنسان يأخذ بالرأي يدل عليه دليل ، وهو أعلى درجات الحجة.

- فعن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :" لو كانتِ الدُّنيا تعدِل عنْد اللهِ جنَاحَ بعوضةٍ ما سقَى كافرًا مِنْها شَرْبةَ ماءٍ[٤٧]".

استخدم الخطاب النبوي في هذا الحديث (الحجاج المنطقي): وهو عبارة عن معطى أو أكثر ملحوق باستنتاج.

ويشترط لسلامة الحجة أن تكون جميع المعطيات صحيحة حتى تأتي باستنتاج صحيح ، وهذا يعني أنه يستحيل الاستنتاج الخاطئ مع معطيات حجة صحيحة .

وللحجج المنطقية نوعان : الاستقرائي ، والاستنباطي .

الاستقرائي : هي الحجج التي إن كانت معطياتها صحيحة، يكون استنتاجها أقرب إلى الصحة من الخطأ. أي أن صحة استنتاجها تكون محتمله فقط وليست واجبة.

مثال : * معظم الرحلة خريجات.

*نهلة في الرحلة

الاستنتاج : إذن :ربما نهلة خريجة.

فالمعطى الأول يحوي كلمة ''معظم'' والاستنتاج بالتالي يحوي كلمة ''ربما'' فلو أزلنا هاتان الكلمتان لكانت الحجة استنباطية ، يقينية كاملة ،لكن الوضع يختلف هنا. لأن خبر الحجة قابل للشك فلا نستطيع أن نكون متأكدين مئةبالمئة من صحة خبرها ولكن نستطيع تقريبه[٤٨].

- الاستنباطي : هي التي يترتب صحة استنتاجها على صحة معطياتها.

مثال : كل طلبة الجامعة أزهريون .

محمد حسن طالب في الجامعة .

الاستنباط : إذن محمد حسن طالب أزهري. فمن المعطيات السابقة يستحيل أن نستنتج شيئا غير أن محمد حسن طالب أزهري.

الحجج الاستنباطية إذاً تقودنا إلى التيقن بصحة خبرها. فلا مجال للشك فيها.إلا إذا وجد خطأ في أحد معطياتها ، أو مغالطة منطقية في الاستنتاج .

فإلى أي نوع ينتمي الخطاب النبوي السابق؟ وكيف نتوصل إلى النتيجة المطلوبة ؟

إنها صورة موازنة ، وضع لها مدخلا (لو) الشرطية : حرف امتناع لامتناع ، وترك للمخاطب استنباط النتيجة المؤدية إلى البعد الحِجَاجِي المراد ، ويمكن تلخيص الحجة المنطقية كالآتي :

- لو تعدل الدنيا عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء.
- الكافر يشرب ويعربد في الدنيا كيف يشاء .
- إذن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة .

كيف توصل المتلقي إلى هذه النتيجة ؟ لقد طرح الخطاب النبوي أمام المتلقي معطيات صحيحة لا مجال للشك فيها ، مما استحال معه الاستنباط الخاطئ من المتلقي ؛ ذلك ليصل بنفسه إلى البعد الحِجَاجِي المطلوب ، فيقر بعقله مقتنعًا أنه مادام يرى الكافر ينعم ويتمتع بكل مظاهر الترف في الدنيا لا بالماء فقط ، إذن هي لا تساوي عند الله ، ولا هذا القدر الضئيل في الوزن والقيمة والمنظر (شربة ماء) ، ولشمول هذه الحجة جنس الكافر في كل زمن وعصر ، وعلى اختلاف فئاتهم ومللهم ، وبكل صورة يظهر عليها جاء تنكير(كافرًا)

، كما أسهم لفظ (شربة) في تأكيد البعد الحِجَاجِي ، وهي تعني لي : منح الحياة ،قال تعالى: " ...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...٤٩" فلو كانت لها قيمة عند الله ما منحهم الحياة أصلا على وجه الأرض ، فما بالنا وهم يتمتعون فيها ويأكلون كما تأكل الأنعام ، ويشربون مما لذ وطاب لهم فيها. وفي خطاب آخر يقول(صلى الله عليه وسلم) :" الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر"، فياله من وصف دقيق لحال كل منهما.

وقد استوفى الخطاب النبوي في هذا الحديث قانون (الصدق) في الخطاب، فضلًا عن صدور الخطاب من الصادق الأمين (صلى الله عليه وسلم)، لكنه لم يعتمد على شخصه ، ويقين المتلقي فيما يصدر عنه،بل أتى في خطابه بما لو تأمله المخاطب لأقر بالمعلومة غير مستنكرًا لها ، فصحة المعلومة وصدق الخبر شرط أساس في عملية الخطاب[٥٠]، وهو متوفر في البعد الحِجَاجِي للصورة المطروحة، ويتوفر بلا شك في الخطاب النبوي بوجه عام.

وعن أبي هريرة قال : جاء رجل من بني فزارة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: إن امرأتي ولدت غلامًا أسود – وهو حينئذ يعرض بأن ينفيه-.

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم):" وهل لك من إبل؟"

قال: نعم

قال:" فما لونها؟"

قال: حمر.

قال:" هل فيها من أورق[٥١]؟"

قال: إن فيها لورقًا.

قال:" فأنَّى أتاها ذلك؟"

قال: عسى أن يكون نزعه عرق.

قال:" وهذا عسى أن يكون نزعه عرق[٥٢]".

يحمل التصوير بالموازنة هنا حجة منطقية استقرائية، فالإبل ليست المقصودة بذاتها ، وإنما ساقها الخطاب النبوي اسقاطًا على حال الرجل ، ثم تركه(صلى الله عليه وسلم) يستخلص الحجة بنفسه، و لم يقرِّرها أو يلزمه بها حتى لا يشعر بالقهر والإلزام .

ففي الخطاب السابق ثلاثة طرق توصل بها الخطاب إلى التأثير في المتلقي ، وإقناعه هي :الحوار، والموازنة ، والمنطق. والمقام يستحق هذا التعدد والتنوع ، إذ الحال تتعلق بالنسب وهو أمر جد خطير.

أما الحوار فسبق الحديث عن فضله وقيمته في التأثير والإقناع[٥٣] ، فقد دار من خلال حرف (إن) للتأكيد ، ثم (هل ، و أنّى) للاستفهام التقريري ، ليصل إلى أن يقر المتلقي بنفسه ما ينبغي فعله. وأما الموازنة فقد ابتعد بها الخطاب فأتي بمثال بعيد عن الحال التي جاء يشكو منها ، ولكنه سيدرك منها التشابه بينها وبين حاله .ويستنبط المراد بنفسهمن خلال الموازنة بين ما في إبله ، وما عليه حال ولده .

وأما المنطق فكأنما وضع عنده معطيات الحجة الاستقرائية،فبناها على معطيات صحيحة لكن النتائج تأتي محتملة ؛ فكأنه قال:

معظم الإبل لديك حمر وبعضها نزعه عرق.

هذا الجمل أوْرق .

إذن : عسى نزعه عرق.

وهكذا.. كانت النتيجة مؤكدة : الإبقاء على الولد ، فما أعظمك سيدي يا رسول الله ، وما أحكمك وحرصك على بقاء الأسرة وعدم تفككها، ولو اتخذناك قدوة ما تفرقت الأسر كما هي في هذا الزمان ،و لما هان الولد على والده ، ولا الزوج على زوجه. ولو رجعنا إلى ديننا الحنيف عملًا لا قولا وعلمًا فقط لانصلح الكون بأكمله ، ولما هُنّا على أنفسنا قبل الآخر.

وهنا يظهر قانوني (الملاءمة، ومبدأ التعاون) في الخطاب،حيث تحدث النبي(صلى الله عليه وسلم)بما يلائم المخاطب مستخدمًا عبارات واضحة لا تحتمل التحريف أو التأويل، موجهًا المخاطب إلى الهدف بطريق الحكاية والحجة، جاعلاً المخاطب شريكًا في العملية الحِجَاجِية، ومتعاونًا عقلانيًا حيث يسهل تأويل الأقوال ، ومن ثم تُدرك المقاصد وينجح الخطاب[٥٤].

ومن الأبعاد الحِجَاجية في التصوير بالموازنة :

- عن أبي هريرة ، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال :" لقابُ قوسٍ في الجنةِ خيرٌ مما تطلُعُ عليهِ الشمسُ أو تغربُ٥٥".

بطريق الموازنة يرسم الخطاب النبوي بونا شاسعًا ، بين مقدار يسير في الجنة (قاب قوس٥٦)، وما تطلع عليه شمس الدنيا أو تغرب ، حيث يظهر البعد الحِجَاجي للخطاب النبوي ، وهو دفع المتلقي إلى العمل على ما يوصله إلى الجنة ولو كان مقدارًا يسيرًا فيها، إلا أنه يستحق تعاطي معطياته في الدنيا من كبح جماح الشهوات ، والرغبات ، والإعراض عن الموبقات ، والكبائر التي يعيها المسلم الحق جيدًا، ومقاومتها في هذا الزمن لاشك صعبة وشديدة ، لكن المطلوب يستحق(ألا إنَّ سلعةَ الله غاليةٌ ، ألا إن سلعة الله الجنة٥٧).

في سبيل دفع المتلقي إلى الاقتناع بهذه الموازنة الغريبة ؛ ذلك أنها توازن بين ما هو مشاهد ومُدْرَك ، وبين أمر غيبي يبدأ الخطاب النبوي بالقسم (لام القسم) ، ليدفع بها أيَّ شكٍ في مضمون الخبر الذي يتصف بالغرابة ويدعو للدهشة والتعجب، و ربما عدم التصديق ممن لا يملكون إيماناً راسخاً.

وزاد الصورة بُعدًا وتركيبًا وغرابة وجمالًا قوله(صلى الله عليه وسلم): "خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب"

يمنح العقل مساحةً واسعةً من التفكيرِ والمقارنةِ والمواءمةِ ، بين حاجاتِ الجسد ، وحاجة الروح ، بين ما يشاهده أمامه كل لحظة ، وما ينتظره بعد الحساب ، والأمر ليس باليسير ، فقد جُبل الإنسان على حب الشهوات قال تعالى :" زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ"٥٨.كل هذا أمامه كل لحظة، لكن الله تعالى هيّأ له من يرشده ، ويدله على الصراط المستقيم ، فهل يقنع؟ وإذا قنع ، فهل يستطيعُ ؟ إنها معركةٌ حقيقيةٌ بين المرء ونفسه ، وبينه وبين شيطانه الذي يلعب فيها دوراً كبيراً.

فضلاً عن استخدامه (صلى الله عليه وسلم) المضارع (تطلع) ليوحي به الاستمرار والتجدد مهما تغيرت الأزمنةُ والأمكنةُ، ومهما تعددت المغريات وتنوعت.

لذا ناسب خطابُ الملاءمة والجدية هذا المقامَ ؛ فكانت عبارتُه(صلى الله عليه وسلم) مناسبةً حال المتلقي غير المصدق لهذا الخبر، فكان التأكيدُ بالقسم مناسباً ،ثم لضمان نجاح القضية الحِجَاجِية كان القطع بأفضلية ذلك القدر اليسير في الجنة للمرء بلا منازع[٥٩].

هذا ، وقد تعددت صور الموازنة في الخطاب النبوي التي ذُكر فيها(مما طلعت عليه الشمس.

منها قوله (صلى الله عليه وسلم) :" لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس٦٠".وقوله(صلى الله عليه وسلم):" لقد أنزلت عليّ الليلة سورة فهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ...٦١".

ثالثًا : الأبعادُ الحِجَاجِية للتصوير بالموسيقى :

تلعب الموسيقى دورًا بارزًا وهامًّا في التصوير ، إذ تنشأ من العلاقات المتشابكة بين الألفاظ وبينها وبين المعاني ، ومن العلاقة النفسية بين الشكل والمضمون وبين المؤلف أو المتكلم ، وهي إحساس يستشعره المتلقي بوجدانه قبل أن يحلل جزئياته .

إذن فالموسيقى تنشأ من علاقات وليست من لفظة واحدة ، وهذا ما تشير إليه نظرية النظم .

وفي الخطاب النبوي تنسيق محكم للمعاني في معرض دقيق من الألفاظ، حيث تشعر ببناء محكم لو حُذفت منه لبنة انهار الجدار بأكمله، إنه بمثابة سلم نصعد أدراجه الواحدة تلو الأخرى ونترقى من فكرة إلى أخرى وفق ما يتصور الذهن وما يناسب الإحساس.

وقد كان الخطاب النبوي منسجم الأصوات والحروف ،يتمتع بجرس موسيقي يريح الأذن ويتناسب مع سياقي المقام والحال ، ولنتأمل البعد الحِجَاجِي للصورة الموسيقية في الخطاب النبوي التالي:

عن البراء بن عازب ، أنّ النبي (صلى الله عليه وسلم) أوصى رجلًا ، فقال:" إذا أردت مضجعك فقل : اللهم أسلمتُ نفسي إليك، وفوّضتُ أمري إليك، ووجّهْتُ وجهي إليك، وألْجأتُ ظهْري إليك ؛ رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجا ولا منجى منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ ، وبنبيك الَّذي أرسلتَ ، فإن مُتَّ مُتَّ على الفطرةِ ، فاجعلهنَّ آخر

ما تقول٦٢". فقلتُ أستذْكِرهنَّ : وبرسولك الذي أرسلتَ . قال :" لا ، وبنبيك الذي أرسلت".

برزت الموسيقى الداخلية للألفاظ والعبارات في الخطاب النبوي السابق من خلال ظاهرة التكرار٦٣ ، وهي ظاهرة أسلوبية تؤدي معاني بلاغية بديعة ، وتضفي على العبارات موسيقى داخلية تنساب في هدوء الحرف المكرر (التاء).

تكرر حرف التاء اثنتي عشرة مرة وهو صوت مهموس يتناسب وجو النوم الهادئ حيث الطمأنينة والسكينة مادام العبد يتوجه إلى الله (تعالى).

إن اتصال الضمير(التاء) بالفعل الماضي – أسلمت ، فوضت، وجهت ، ألجأت ، آمنت – يعطي بُعدًا حِجَاجِيا حقيقيًا ،فالتعبير يشير إلى التسليم التام والكامل على وجه الحقيقة غير القابلة للنقض ، فلم يخرج الخطاب عن فصاحته بهذاالتكرار ، و لم تخرج العبارات عن بلاغتها ، بل زانه وأكسبه جمالا وإيقاعا موسيقيا. فضلا عن سهولة حفظه وإمكان ترداده. وهذا التسليم التام لله (تعالى) سر تكرار لفظة " إليك " التي كانت بمثابة قفل أو فاصلة تنهي مقاطع الخطاب، فاتصال ضمير الخطاب بالحرف ، يعني أن هناك تلازمًا بين الاسم والمخاطب ، وأن الآثار العاطفية والنفسية مختصة بالمخاطب .

هذا .. ولعل بداية الخطاب النبوي بالأمرمصحوبا بفاء الترتيب مع التعقيب يفيد رأفة الهادي

(صلى الله عليه وسلم) ورغبته في نجاة أمته ، فالأمر للإرشاد والتنبيه ، لذا جاء معقبًا بسبب هذا النصح والإرشاد في قوله :" فإن مُتَّ مُتَّ على الفطرةِ". حيث دخلت (إن) على الفعل الماضي ؛ لإفادة المستقبل، والأصل فيها الدخول على المضارع ، ولا يجيئ الماضي معها إلا لغرض بلاغي ، وهو إبراز غير الحاصل الذي يحدث في المستقبل في معرض الحاصل الذي وقع في الماضي وتحققنا من وقوعه ،والسبب هنا هو الإشارة إلى أن الفعل (الموت) واقع لا محالة في أي لحظة كان عليها المرء٦٤ .

وفي الإشارة المؤكدة على الالتزام بجملة " بنبيك الذي أرسلت" ،دون غيرها ، تدعو للتدبر ، في دقة المعنى ودلالته ،ذلك أن (الرسول) يصدق على كل إنسان يحمل رسالة إلى آخر

مكتوبة كانت أم ملفوظة، أما لفظ (نبيك) تعني أن الخطاب من الله تعالى بلفظه (صلى الله عليه وسلم)، فلا ينطق عن الهوى ، ولذا وجب الاتباع ، لتحصل النجاة. والله أعلم.

ومن البعد الحِجَاجِي للتصوير بالموسيقى في الخطاب النبوي:

- عن ابن عمر ، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال:" إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر٦٥".

يرمي البعد الحِجَاجِي لهذا الخطاب إلى بث الطمأنينة ،مع الرهبة في آن واحد من خلال صورة موسيقية بديعة تعاطف فيها المعنى مع اللفظ فأصبحت الموسيقى تخدم المعنى وتقود إليه ، وتدل عليه .

يحكي الخطاب صوت من يعالج الموت في حنجرته ، حيث عبر بقوله (يغرغر) فتكرار المقطع في هذا الفعل يُشعر بصوت من يصارع الموت ، فخدم إيقاع اللفظ على هذه الحال المعنى ودلالته. وهذه صورة أخرى للتكرار(تكرار المقطع)[٦٦].

أما بَثُّ الطمأنينة فهذا لمن يعتقد أنه لا سبيل للتوبة وقد زادت ذنوبه وكثرت حتى تغشاه اليأس من قبول توبته. وأما الرهبة فلمن يعلم يقينا أن الموت سيدركه بين لحظة وأخرى فيُسرع بالتوبة حيث لا يؤمَن من هذا الفجائي. وقد اندرج هذا الخطاب تحت قانون الصدق في الخطاب، حيث توفرت آلياتُه الحِجَاجية كاملة تامة ، مع ترك ذلك الفضاء للمتلقي يتصور فيها حال التوبة ووقت الغرغرة وخروج الروح، إنها لحظة غيبية لا يدري المرء ساعتها، والتوبة بين يديه وفي استطاعته الآن عليه أن يغتنمها، قبل فوات الأوان.

ومن التصوير بالموسيقى :

- عن أبي هريرة ، قال: رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا تَحاسَدُوا ، ولا تَبَاغَضُوا ، ولا تجسَّسوا ,ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَنَاجَشُوا[٦٧] ،وكونوا عبادَ الله إخوانًا[٦٨]".

تحقق البعد الحِجَاجِي في الخطاب النبوي السابق من خلال عدة صور موسيقية :١- تغير الإيقاع تبعًا لتغير المعنى . ٢- قرب مخارج الحروف في كل لفظة وإيقاعها أبرز انسجامًا رائعًا فيما بينها وبين ما قبلها وما بعدها. ٣- التوازن والتقطيع الصوتي.

تنساب كلمات الحديث في سهولة مبهرة ، مع جرس موسيقي رائع، فيتحد اللفظ مع المضمون لرسم صورة تحمل كلٌ منها أبعادًا تربوية ، واجتماعية ، وأدبية مختلفة .

فمضمون الحديث جد خطير ، والبعد الحِجَاجِي له يترتب عليه قيام أمة على خير أو فساد أمة وانهيارها، وضياعها .لذا كان النهي الملزم ملائما للسياق ،ثم أعقبه بما يفضي إليه " كونوا عباد الله إخوانا" فتَوَخِّي هذه الموبقات والبعدُ عنها من شأنها تقريب الناس بعضهم إلى بعض في وئامٍ وتراضٍ وإخوةٍ تخلو من التحاسد والتباغض وكل ما نهى عنه (صلى الله عليه وسلم)، خطاب يُعلي قيمةَ الألفةِ والتآلفِ من خلالِ ترك ما يفسد العلاقات بين الناس من حسدٍ وحقدٍ وتباغضٍ وإفشاءِ الأسرار ، ونشر الفاحشة وغيرها مما يفسد ذاتَ البين.

وها هو الخطاب النبوي الذي يتسم بالصدق والجدية، ويصل إلى الغاية بأقصر الطرق وأوجز العبارات.

جاءت كلماتُ الخطاب موجزةً بليغةً تحملُ وراءها معاني كثيرة فهي من جوامع كلمه (صلى الله عليه وسلم).

رابعًا : الأبعادُ الحِجَاجية للتصوير بالتشبيه والتمثيل :

التشبيهُ لونٌ من ألوان التصوير البياني وآليةٌ حِجَاجيةٌ ، يشاركُ فيه شيءٌ شيئاً آخر في صفةٍ أو أكثرَ، وتُعْقَد هذه المشاركةُ بأداةٍ ،وثلاثةِ أركانٍ ، قد يتبادلُ فيه الطرفان أماكنهما ،وقد يُضمر أحدهما ، وقد يُحذف وجه الشبه ، وقد تُحْذَفُ الأداةُ أو يحذفان معًا ، وعلى هذا النحو تتعلقُ التحولاتُ في الصورةِ التشبيهيةِ بين الحضور والغياب بالأركان الأربعة : المشبه ، والمشبه به، ووجه الشبه ، وأداة التشبيه.

ولعل أقوى أنواع التشبيه هو ما احتاج إلى تدبرٍ وتفكرٍ وتأملٍ لإيجاد وجه الشبه بين الطرفين، أو هو ما حُذِفَ منه الأداةُ ووجهُ الشبه ؛ لأن ذكر الأداة يدل على ثبوت مزية للمشبه به على المشبه ، فحذفها يوهم عدم تلك المزية ، وذكر وجه الشبه يدل على انتفاء وجه آخر له ، فحذفه يوهم عموم التشبيه في صفات المشبه به.ويخرج التشبيه من التقريرية والمباشرة إلى نوعٍ من المبالغة في وصفِ التشابه بين الطرفين الذي وصل إلى التلاحم على سبيل المبالغة.

ومن ذلك في الخطاب النبوي :

- عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" الدُّنيا سَجنُ المؤمن ، وجَنَّةُ الكافر[٦٩]".

الخطابُ موجهٌ لبُعدٍ حِجَاجِي دقيقٍ ، وهو تسليةٌ للمؤمن وطمأنةٌ له ، وكأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يطمئنه على أن ما يلاقيه في الدنيا من حرمان ومجاهدة للنفس والانتهاء عما نهى الله ، والعمل بما أمر، مهما طال فمصيره إلى زوال ،" كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ[٧٠]" والآخرة هي الحياة الأبدية الحقيقية. فلا ينظر، ولا يهتم ولا يحقد على ما يجد من تمتع الكافر بما في الدنيا من مغريات فهذه هي حياتُه التي لن يجد مثلها بعد الموت.

وقد يكون المراد هو أن ما يراه المؤمن من نعيم في الدنيا فما هو إلا سجن بالقياس بما سيلقاه من نعيم في الآخرة ، وما يراه الكافر من نعيم في الدنيا ما هو إلا جنة بالنسبة لما يلاقيه من عذاب الآخرة .

وعلى أية حال فرأيي في قوله تعالى:" زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ[٧١]". أن هذا الحبَّ له ضوابطُ وليس من حق المؤمن أن ينال منها إلا ما أحلَّه اللهُ بضوابطهِ المشروعةِ ، وعليه فهو يحبس نفسه عمَّا لا يحلُّ له منها ، وهذا بالنسبة له كالسجن الذي ينتهي بموته؛ ليجد ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ من نعيمِ الحياةِ الأبدِيَّةِ.

أما الكافِرُ فيستمتعُ بها جميعا فهي جنتُه التي ستنتهي بموته ، ولن يلاقي بعد ذلك أيَّ متعةٍ .

صوَّر الخطابُ النبويُّ هذا المعنى بألفاظٍ قليلةٍ تحملُ من المبالغة والإيجاز ما يؤثر في نفس المتلقي، ويدعوه إلى التدبر والتصبر على هذا الاختبار الدنيوي ، والاختبار مهما طال أمدُهُ فهو قصيرٌ.

ومن أجل هذا المعنى يعقِدُ الخطابُ موازنةً بين حال المؤمن في الدنيا ،و حال الكافر فيها .

وهي صورةٌ تشبيهيةٌ تترك للمتلقي فضاءً ضمنيًّا يتحرك بداخله ، ليشارك في إكمال الصورة المؤدية إلى الاقتناع بما يُعرض عليه في هذا الخبر ، فيعمل فيه ثقافته ومنطقه ليصل بفكره مقتنعًا إلى البعد الحِجَاجِي أو وجه الشبه في هذه الصورة[٧٢].

وجاءت الصياغةُ للصورة التشبيهية مبنيةً على المقابلة في أمر الحياة الدنيا ، فالمؤمن يراها سجنًا لما عليه الالتزام به من حدود لا يحيد عنها.

بينما يراها الكافر واسعة ممتدة يرفل في نعيمها كيف يشاء ، وهذا ما لا يحده فيها أي حَدٍ سوى الموت.

وجاءت صياغةُ الصورة بالجملة الاسمية ؛ لتؤكِدَ ثباتَ الحال في كلٍ من المؤمنِ والكافرِ.

إلى جانب الإيحاءات الجمالية في إضافة السجن إلى المؤمن ، الجنة إلى الكافر ، وما تضفيه على نفس المتلقي من ارتياح ورضا لعدالة الجزاء، والرضا بما عليه في الدنيا.

وسبب هذا التأثير هو ما توحي به الصورةُ المُشاهدةُ من خيالات في ذهن المتلقي ، حين يجد نفسَه في مواجهةِ صورةٍ تدركُها حواسُه ، فلا يسعُه إنكارها أو الشك في حقيقتها.

هذا هو التشبيهُ البليغُ (محذوفُ الوجه ، والأداة) (المفرد بالمتعدد) ، الذي يسهم في توضيح المعنى المراد وتأكيده ، ونقله من التجريد إلى التجسيد، وجعل المشبهَ هو نفسَه المشبه به، ويؤكد الرُّماني هذا المعنى بقوله:" التشبيهُ باعتباره إجراء دلاليًا وظيفته إفهامية من خلال زيادة المعنى وضوحًا وتوكيدًا ، وإخراج الموصوف من حال التجريد إلى التجسيد ، ومقياس التشبيه عنده كثرة وجوه الشبه حتى يصل حده إلى قيام الواحد مقام الآخر[٧٣]".وخضع هذا الخطاب إلى قانون الشمولية، حيث جمع أطراف الصورة التشبيهية في إيجازٍ و براعةٍ في المبالغة المقبولة تاركًا للمتلقي تصور العديد من المعاني والصور التي تظهر له حال التأمل والتدبر.

ومن الأبعاد الحِجَاجية للتصوير بالتشبيه :

عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" الصومُ جُنَّةٌ[٧٤]".

جاءت الصورة التشبيهية في " الصوم جُنَّة " تحمل بعداً حِجَاجِيا يكمن في ترغيب المتلقي في الصون واقناعه بقيمته.

فشبَّه الصوم ب (الجُنَّة)، وهو الستر[٧٥] ، ثم يترك للمتلقي اعمال ذهنه واستخراج مكنون ثقافته في المراد من هذه الصورة المنتزع منها وجه الشبه والأداة ، وليس هذا بالأمر الصعب ، ولكن إذا كان نصفُ الصورة من صنع المخاطب ، والنصفُ الآخر من صنع المتلقي، فهذا يكفل للصورة قدرتَها الحِجَاجيةَ ،ويدعو المتلقي إلى إماطة اللثام عنها ، مما يحقق قوتها في الإقناع والتأثير[٧٦].

وقد قامت هذه الصورة على التجسيم الذي يتلاحم فيه الطرفان : الروحي والحسي ، حيث يتجاوز عالم المحسوسات إلى ما ورائها ، ويعلو عليها ؛ فيولد انطباعًا روحيًّا له دلالاتٌ جديدةٌ غيرُ معهودةٍ في عالم الواقع .

كما تَشَكَّلتِ الصورةُ من العدول في لفظ (الصوم) الذي يعني: الإمساك عن الطعام والشراب، من حيز الاستعداد النفسي والذهني ، إلى السترة التي تستر صاحبها وتقيه ، الصوم يقي المسلم من الوقوع في المعصية ،ويحفظه من ارتكاب المنكرات، مثل السترة التي تحفظ صاحبها من أذى البرد وشدة الحر، أو السلاح الذي يدافع به الجندي عن نفسه ، وفي تلك العلاقة الجديدة بين المجرد والحسي ، وتخيل امتزاجهما، يتجلى التصوير الرائع للبعد الحِجَاجِي من الصورة ، وأثرها في تغلب المسلم على الهوى ، ومحاربة النفس والشيطان.

يقول ابن الأثير:" واعلم أن فائدةَ التشبيه هي الكشفُ عن المعنى المقصود، مع ما يكتسبه من فضيلة الإيجاز والاختصار[٧٧]".

ومع هذا الإيجاز المعجز فقد وفَّى هذا الخطاب النبوي قوانينَ (الشمولية والإفادة و الكم ، والوجاهة) لا إله إلا الله ، إنه خطابٌ يشتمل على ما اُصطُلِحَ على كونها قوانين تحكم الخطابَ البشريَّ ؛ فكان الكَمُّ كافيًا وملائمًا لحال المتلقي ، شاملًا لكل ما يمكن أن يجول بذهن المتلقي في أي عصر وأي مكان، محترمًا فكر المتلقي أينما ووقتما وُجد، فلا يحتاج معها إلى زيادة ألفاظ ، بل عليه إعمال ذهنه في هذه (الجُنَّة) ليقر قانعًا بقيمة الصوم ، وعظم نعمة الله فيها على العبد.

هذا.. والتمثيل أحدُ صور التشبيه ،وهو أَخَصُّ من التشبيه ، فكلُّ تمثيلٍ تشبيهٌ ، وليس كلُّ تشبيهٍ تمثيلًا[٧٨]، ويتشكل التمثيلُ من عقدِ صلةٍ بين صورتين ، يُنتزع منهما وجه الشبه ؛ ليتمكن المتلقي من الاحتجاج ، وبيان حجته ،من خلال تأثير التشبيه عليه.

يقول الإمامُ عبدُ القاهر :" واعلم أن مما اتفق العقلاءُ عليه، أن " التمثيلَ" إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت عن صوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكسبها مَنْقبةً، ورفع من أقدارها ، وشبَّ من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً كَلَفًا ، وقَسَر الطباع على أن تعطيها محبّةً وشغفًا، فإن كان مدحًا كان أبهى وأفخم ، و... وإن كان حِجَاجًا، كان بُرهانُه أنورَ، وسلطانُه أقهرَ ، وبيانُه أبهرَ...[٧٩]".

ولنتأمل البعد الحِجَاجِي للتشبيه التمثيلي في خطابه (صلى الله عليه وسلم) التالي :

- عن النعمان بن بشير – رضي الله عنهما- قال: قال النبي(صلى الله عليه وسلم): " مَثَلُ القائمِ على حدودِ الله، والواقعِ فيها ، كمثَلِ قومٍ اسْتَهَمُوا[٨٠] على سفينةٍ، فأصاب بعضُهُم أعلاهَا ، وبعضهم أسفلَها، فكان الذين في أسفلها ، إذا استَقوْا من الماء، مرّوا على مَن فوقَهم ، فقالوا : لو أنَّا خرقْنا في نصيبنا خَرْقًا ، و لم نُؤْذِ مَنْ فوقِنَا ، فإنْ يتركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم، نجوْا ، ونجوْا جميعًا[٨١]".

يريد الخطابُ النبوي تسجيلَ حالةِ المجتمع ، وما يشتمل عليه مع تنوع فئاته في العقيدة الواحدة فبعضهم ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويخشون ربهم، وهؤلاء في الدرجة العليا ، وبعض آخر يخوضون في أنواع المعاصي ويرتكبون الذنوب والآثام يستهترون بحدود الله ، وبآداب الدين .

ويمثل لهذا المعنى بصورة السفينة ،اختار راكبوها مكانهم منها بعد الاقتراع ، فكان نصيب المفسدين في أسفلها ،حيث يسهل عليهم خرقها، وجاء نصيب المصلحين في أعلى السفينة ، وهذا نوع من الابتلاء والاختبار.

وقد نجح المصلحون في أخذهم على أيدي من أرادوا خرق السفينة ، فنجوا جميعًا من هلاك محقق.

هنا يتحقق البعد الحِجَاجِي للصورة التمثيلية مؤداها:

إذا تعارضت مصلحةٌ خاصةٌ ومفسدةٌ عامةٌ فإنه يغلّب جانب المصلحة العامة على جانب المصلحة الخاصة من أجل درء المفسدة العامة ، وكانت الآلية المستخدمة هي التمثيل ، فمثل للمصلحة الخاصة بالذين يستقون الماء أسفل السفينة ، ومثَّل للمفسدة العامة بهلاك الكل بسبب ذلك الاستقاء بخرق السفينة ، وربط هذا المشهد التمثيلي كله بمشهد القائم على حدود الله والواقع فيها مما يؤدي به تباعًا إلى الشقاء.

وكان هذا من خلال تشبيه تمثيلي قائم على صورتين إحداهما صورة ذهنية عقلية (هيئة المشبه) ، والأخرى صورة حسية واقعية يدركها المخاطب إدراكًا تامًا(هيئة المشبه به). فهذا تشبيه مركب من عدة صور جزئية تضامت وتلاحمت لتكوين حالة وهيئة واحدة :

- حال القائم على حدود الله ، وهو الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر، والواقع فيها (صورة مشبه عقلية)
- حال جماعة مؤمنة جلسوا في أعلى السفينة ، وأخرى مخربة جلسوا في أسفلها (صورة مشبه به حسية).

تُفهم هذه الصورة التمثيلية : أن المؤمن عليه الأخذ على أيدي العصاة بالنصح لهم ، وتوضيح ما خفي عليهم من عواقب المعصية وارتكاب الذنوب ، فالمجتمعُ لُحمةٌ واحدة ، التناصحُ ينجيه ، والتخاذلُ يهلِكُهُ ،والنجاةُ للجميع كما أن الهلاكَ سيلحق بالجميع ، فلا يجوزُ للفرد ضمانُ مصلحته الخاصة مقابلَ إضرارِ العامة[٨٢].

وجهة أخرى لتوضيح الصورة التشبيهية :

- تصوير حال المؤمن القائم على حدود الله ، المتمكن من قيامه بمهام التوحيد والعقيدة .
- بحال القوم الذين سكنوا أعلى سفينة .

- البعد الحِجَاجِي هنا هو : (رفعة منزلة وعلو شأن) ؛ لأن المؤمن الحق منزلته أعلى وأرقى. قال تعالى :" وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[٨٣]".
- ثم تصوير حال العاصي ، الواقع في حدود الله ،مرتكب المعاصي .
- بحال قوم ركبوا في أسفل السفينة .
- البعد الحِجَاجِي هنا هو: الضعة والحقارة.

ولكن هذه الصورة لم تؤد البعد الحِجَاجِي المراد ، وهو أن : الإيمانَ ، والقيامَ على أوامر الله ونواهيه والتناصح منجاةٌ للجميع.

والصورة الأولى صورةٌ كليةٌ رائعةٌ تحكي حالَ المجتمع بصورةٍ شاملةٍ ، والمصيرَ المنتظرَ نتيجةَ أفعال من يعيشون في هذا المجتمع، وتترك للمتلقي فضاءً يقارن فيه حال كل فريق ، وما ينبغي أن يكون عليه حاله في المجتمع.

وفي سبيل رسم هذه الصورة الفنية البيانية البديعة تكاتفت عدةُ جزئياتٍ تُثري الصورةَ بالمعاني الحية الرائعة ومنها:

١- قوله (صلى الله عليه وسلم): " القائِم على حُدودِ الله" يفيد الاستعلاء الحسي [٨٤]، فكأن الحدود هنا أمر محسوس يقيم عليه المرء ليحفظه.

٢- قوله (صلى الله عليه وسلم):" الواقِع فيها" في تفيد معنى التمكن والظرفية والوعائية[٨٥]، فكأن الذنوبَ أحاطت بالعاصي واشتملت عليه ، وقد انغمس فيها كأنها وعاء له.

٣- قوله (صلى الله عليه وسلم):" استهموا" بمعنى : اقترعوا ، يدل على طلبهم القرعة ، وكان وضع كل منهما بناء على موافقة الطرفين على نتيجة الاقتراع ، ويوحي هذا بأن العلو متنازع عليه ، وأنه رغبة يريدها كل فريق لنفسه ؛ لأنه يرى أنه على صواب.

٤- قوله (صلى الله عليه وسلم):" فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها " بنية تضاد توضح الفرق بين الموضعين ، وتقوي الحجة وتظهر البعد الحِجَاجِي لتقوية التأثير والإقناع .

كما يوحي (أصاب) بأن المكان هدف يسعى إليه كل فريق.

٥- هناك طرف ثالث يتضمنه الخطاب يترك للمتلقي مساحة يجول فيها بذهنه لو لم يكن من أحد الفريقين ، فما مصيره؟ وما الأثر الذي سيتركه في المجتمع ؟ وما أهميته في الحياة؟

٦- قوله (صلى الله عليه وسلم): " فكان الذين في أسفلها ، إذا استَقوْا من الماء، مرّوا على مَن فوقَهم ، فقالوا : لو أنَّا خرقْنا في نصيبنا خَرْقًا ، و لم نُؤْذِ مَن فوقنا..." يشتمل على عدة معاني:

منها : دخول الشرط (إذا) على الفعل الماضي (استقوا) تفيد القطعبوقوع الشرط في المستقبل[٨٦]، مما يدل على أهمية الماء ومدى احتياجهم لها ، وعدم امكانهم الاستغناء عنها.

و (استقوا) على وزن (افتعلوا) والافتعال فيه تكلف وبذل جهد لتحصيل السقاء[٨٧].

٧- في قوله (صلى الله عليه وسلم):" لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا و لم نؤذ مَنْ فوقنا..." تدخل (لو) على الفعل الماضي ، مع القطع بانتفاء الشرط وانتفاء الجزاء ،فهي موضوعة للدلالة على امتناع الجزاء وعلى أن امتناعه ناشئ عن امتناع الشرط ، ولا تدخل على المضارع إلا لنكتة بلاغية[٨٨] ، هذا يعني أن خرق السفينة لم يقع بعد ، وأن هذا كان تدبيرًا لم يُنفّذ ،دعاهم إليه شدة حاجتهم إلى الماء ، و لم يتعمدوا إيذاء الآخرين بهذا الخرق ؛ كونه في نصيبهم. و لم ينتبهوا إلى ما سيجره هذا الفعل على الجميع .

وهذه ذريعة المنحرفين؛ يقولون : نؤذي أنفسنا ولا نؤذي أحدا فنحن أحرار فيما نفعل ، ونظرتهم هذه قاصرة وضيقة ، لأن المجتمع لا محالة سيتأذى بانتشار مثل هذه النفوس بينها.

لذا كان هناك بعدا حِجَاجِيا آخر لهذا الخطاب التمثيلي الرائع : أن الحرية ليست مطلقة ، بل هي مقيدة بضوابط شرعية ، تتعلق بمصلحة المجتمع ، فالحرية المطلقة

تؤدي إلى فوضى وانحلال خُلقي وفساد يلحقه هلاك محقق .فلا حرية في عمل يفسد خشب السفينة مادامت تمخر عباب الماء[٨٩]، كذلك لا حرية تفسد المجتمع وتودي به إلى الفناء بعد سخط الله.

٨- كما يحمل تكرار[٩٠] ذكر النجاة في الحديث بُعْدًا حِجَاجِيا جديدًا ، يؤكد من خلاله على ضرورة الأخذ بقوة على أيدي العصاة ، لأن النتيجة مؤكدة كما كان الهلاك مع تركهم مؤكدًا ،فالنجاة تحققت للعصاة مرتين ؛ مرةً منفردين نتيجة انصياعهم للمؤمنين ، ومرةً على سبيل الدمج مع المؤمنين مما يدل على أنهم جزءٌ أصيلٌ في المجتمع يؤثر فيه ويتأثر به ، وأن منعهم من الإفساد إنما يكون في صالحهم أولًا ، وفيه ترغيب للمؤمنين بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنظر إلى المصلحة العامة .

ويظهر هذا التمثيلُ الرائعُ مستوفيًا قانون الإفادة ،وهو القانون الأكثر صحةً ودقةً ، حيث يكون المتلقي في حال إثراء لمعلوماته ، ومدركًا لها ،حيث يظل يستزيد من المعلومات المطروحة أمامه ، ويزداد شغفه حين يتخيل السفينةَ وما عليها ، وحاجاتِهم الضروريةَ وكيفيةِ استيفائِها ،وأنه بداخلها ، وماذا عليه أن يفعل ، ثم حاله في الدنيا وعلى أرض الواقع وبين أهله وأصدقائه ومجتمعه وما عليه أن يقوم به تجاههم، إن الشغف والاستشراف، مع العبرة والعظة يتنازعان بداخل المتلقي.

وهكذا فإن التشبيه أو التمثيل الحِجَاجِي لا يؤتى به ليكون زينة زخرفية تحسينية ، بل ليزيد المعنى وضوحاً فيقتنع به المتلقي ؛ذلك أن الصورة التشبيهية أو التمثيلية تتعاون قوى النفس (الفكر والخيال) في فهمها ، لذلك كان التشبيه أداة ناجحة في الوصول إلى الهدف ، لما يترتب عليه من شغل الباطن ،وشغل الحس الظاهر ، فهي تملك النفوس بكل ما فيها من قوى فكرية أو خيالية ، علاوةً على أن النفس بها أأنس ،ولها أميل فتأخذ بالمخاطب إلى فهم حقيقة المعنى المطروح دون عناءٍ.

خامسًا : الأبعَادُ الحِجَاجية للتصوير بالمجاز المرسل والاستعارة .

ويُقصد بالمجازُ المرسل "كل كلمة أريد بها غيرُ ما وقعت له في وضع واضعها ، لملاحظة بين الثاني والأول[٩١]".

أو هو "كل كلمة جُزتَ بها ما وقعتْ له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له ، من غير أن تستأنف فيها وضعًا، لملاحظةٍ بين ما تُجُوّز بها إليه ، وبين أصلها الذي وُضعتْ له في وضعِ واضِعها[٩٢]".

والعلاقة التي تجمع بين المعنيين غير المشابهة ، فإذا كانت العلاقة المشابهة خرج المجاز إلى الاستعارة .

ولما كانت العلاقة بين المعنيين غير المشابهة فقد سمحت لعدد كبير من العلاقات ، ولا يتقيد بعلاقة واحدة.

وهذا الأسلوب التصويري يعتمد على الإيجاز في اللفظ مع التوسع في الدلالة، وجاءت نماذجه في الحديث الشريف تفيض بالإيحاءات والدلالات التي يقصر التعبير الحقيقي عن أدائها ومنه :

ماروته عائشة أم المؤمنين — رضي الله عنها-: قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "أسْرَعُكُنَّ لِحَاقًا بي أطوَلُكُنَّ يدًا ".قالت : فكُنّ يتطاولنَ أيَّتُهُنَّ أطولُ يدًا، قالت: فكانت أطولَنا يدًا زَينبُ؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتصدّق[٩٣]".

ونتساءل عن البعد الحِجَاجِي لقوله (صلى الله عليه وسلم):" أ أسْرَعُكُنَّ لحوقًا بي أطوَلُكُنَّ يدًا" ، ويظهر من كلامه (صلى الله عليه وسلم) الحثً على الصدقة والبذل والعطاء ، ولكنه لم يستخدم أسلوب الطلب أو اللفظ الحقيقي المؤدي للمراد ؛فلم يقل (تصدّقن) مثلا ، وإنما جاء بتركيب يفيض بالحركة والمرح مصورًا الحال بأنها في سباق حسي وأن اللحاق بالرسول(صلى الله عليه وسلم) هدف للمتسابقات يتبارين للوصول إليه ،ومن خلال تلك الصورة المتحركة التي تفيض بالتحدي والرغبة في الانتصار يأتي الخطاب النبوي موجزًا ، ومعبرًا بكلمات قليلة ، ولكنها دالةٌ على المراد بطريق الحجة والإقناع .

فكان أفعل التفضيل " أطوَلُكُنَّ " تعبيرا محفزًا لطلب الترقي والارتفاع المعنوي إلى مستواه (صلى الله عليه وسلم) ، وهو ترشيح يقوي المجاز ويحقق المبالغة في العطاء ، حيث عُبر بـــ (اليد) عن العطاء والتصدق والإنفاق مجازًا مرسلًا لعلاقة السببية فأطلق اليد وأراد بها النعمة والصدقة لأنها سبب فيها .

فاليدُ لا تقعُ للنعمة إلّا و في الكلام إشارةٌ إلى مصدر تلك النعمة ، وإلى المُولِي لها مثل : جلّت يده عندي ، وكثرت أياديه لديّ[٩٤]

وعبرت الصورة المجازية عن الطول الذهني بالطول الحسي ، وهذا الطول والانبساط لليد يعبر عن العطاء والجود ، وركز السياق العدولي على الملمح الحسي للصورة(اليد) لفاعليته المقصودة في تشكيل الصورة التي تضيء النص ، وتكشف أبعاده الوجدانية والحِجَاجية ؛ إذ إنها الدليل المادي على المعنى ، وجزء منه أيضًا ، ولذلك جاء التعبير باليد لأنها وسيلة الإعطاء والإنفاق والكرم ، وأخص الأعضاء بهذا الفعل ، فكان إيجاز العبارة مع إيحائها وتصويرها للمعنى صورةً حِجَاجيةً تُرغِّب في العطاء ، وتحضُّ على الصدقة ، حتى يتحققَ الهدفُ ألا وهو لحوقُ المحب لهذا النوع من البذل برسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وهو أقصى ما يطمح إليه مسلم.

وفي رواية البخاري : عن عائشة – رضي الله عنها- أن بعض أزواج النبي قلن له (صلى الله عليه وسلم): أيُّنا أسرع بك لحوقًا؟ ....[٩٥]

ذكر ابن حجر في فوائد الحديث : قوله " أطوَلُكُنَّ " فيه جواز إطلاق اللفظ المشترك بين الحقيقة والمجاز بغير قرينة ،إذا لم يكن محذورًا ، قال الزين بن المنير: لما كان السؤال عن آجال مقدرة لا تعلم إلا بالوحي أجابهن بلفظ غير صريح ، وأحالهن على ما لا يتبين إلا بآخر، وساغ ذلك لكونه ليس من الأحكام التكليفية[٩٦].

ومن هذا القبيل : عن ابن عباس ، قال سمعتُ رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) يقولُ :"عينان لا تَمَسَّهما النار : عينٌ بكت من خشية الله ، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله[٩٧]".

في الخطاب النبوي السابق صورة مجازية رائعة ، حيث يحمل قوله "لا تمسهما النار" بُعدًا حِجَاجيا يحفز العقل ، والنفس لتقبله والاقتناع به ، والإقدام عليه. ألا وهو لفت الانتباه إلى قيمة الخشية من الله ومراقبته في السر والعلن، حتى أنه يذرف الدمع خوفًا ورهبة وحبًا لله(جل جلاله) ، ويجمع إلى هذا الأمر ناجٍ آخر لافتًا الانتباه إلى قيمة الأمن في الوطن لدى المرء ، ومقدار الحارس –الذي يؤمِّن حياة الآخرين– عند ربه.

فما من شك في أن نعمة الأمن في الوطن ينتفع بها المؤمن وغير المؤمن وهي من النعم الدنيوية التي أثنى على حيازتها الرسول(صلى الله عليه وسلم) بقوله :" منْ أصبح منكم آمنًا في سربه، معافىً في جسده ، عنده قوتُ يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا[٩٨]".

استخدم الخطاب النبوي في التأثير على المتلقي زيادة دافعيته للإقبال على هذا الأمر: التشويق والتعظيم بتقديم النكرة المثناة " عينان" ، ثم " لا تمسهما النار "مما يثير فكر المتلقي ، ويجعله يستشرف لمعرفة هاتين العينين العظيمتين اللتين لا تمسهما النار ، فأي شيء أعظم من النجاة من نار الآخرة!

آثر الخطاب النبوي استخدام لفظة العين للتعبير عن الإنسان من باب إطلاق الجزء على الكل، وهذا الإيثار له دلالته المعنوية والبيانية التي يتطلبها المعنى ؛ حيث ترسم لفظة " عين " صورة حية للإنسان في موضعين مختلفين :

الأول: صورة من يخشى الهه ويراقبه في كل أعماله، وتذرف عيناه الدموع خشية من الله.

الثاني: صورة من يحرس في سبيل الله ، فلا يزال يرسل بصره ، ويجيل عينيه في يقظة وانتباه ، وحذر وترقب ، حماية وصيانة للممتلكات والنفوس والثغور.

وفي قوله" لا تمسهما" دون غيرها من الألفاظ مثل (تصيبهما أو تلحقهما أو تنال منهما ...) دلالة على أنه لا يلحقهما أدنى أذى أو عذاب.

ف (مس) الميم والسين أصل صحيح واحد يدل على جسِّ الشيء باليد[٩٩]. وهذا ترشيح وتقوية للمجاز المرسل في: "عينان – عين (الأولى والثانية)" فإذا كان المس يدل على الجس باليد فيعني هذا أن اليد لا يمسها النار ، فلفظ العين مجاز مرسل علاقته الجزئية ، حيث أُطلق وأُريد به سائر جسد من تمتع بإحدى الصفتين.

ومما زاد هذه الصورة المجازية تقريرًا وإقناعًا ودعمًا للبعد الحِجَاجِي :

- مجيئ الخطاب بالجملة الإسمية التي تفيد الثبوت والدوام لهاتين العينين .
- مجيئ التعبير بصيغة الماضي في اللفظين :" بكت ، وباتت" للدلالة على تحقق وقوع البكاء والسهر للحراسة.
- مجيئ المضارع في : " تحرس" للدلالة على أن العمل يتجدد باستمرار من هذا الشخص.
- أسلوب التوشيع[١٠٠]: عينان ... عين بكت ... وعين باتت ، وفي ذلك تمكين المعنى وتقويته في ذهن المتلقي بعد تهيئته وتشويقه ، فضلا عما يقوم به التفصيل بعد الإجمال من الربط الدلالي الذي سهم في تماسك النص وترابط عناصره.

الأبعاد الحِجَاجية للتصوير بالاستعارة:

تعد الاستعارة آلية من آليات الحجاج ؛ فهي أشهر صور المجاز اللغوي ، وأرحبها أفقًا ، وأكثرها تأثيرًا ،وهي بشتى أنواعها بيان أو توضيح أو معرفة ورؤية أو تعبير عن الذات، أو ملء لفراغ اللغة ، وفي كل ذلك عون للمخاطب على تحقيق الإقناع والتأثير.

وحِجَاجية الاستعارة عند الجرجاني قائمة على مفهوم الادعاء ؛ فهي ليست حركة في الألفاظ ، إنما حركة في المعاني والدلالات، كما أنها ليست بديعًا بل طريقة من طرائق الإثبات الذي يقوم على الادعاء[١٠١].

وقد ذكر الجرجاني إلى أن الطرق التي تسلكها الاستعارة متشعبة ، ولا نهائية ، والتأثيرات التي تسلكها غير محصورة، فهي " أمد ميدانًا ، وأشد افتنانًا ، وأكثر جريانًا ، وأعجب حسنًا وإحسانًا، وأوسعُ سعة وأبعد غَوْرًا، وأذهبُ نجدًا في الصناعة وغورًا من أن تُجمعَ شُعَبَها وشعوبها ، وتُحصر فنونها وضروبها...[١٠٢]"، إنها تؤثر على المستوى الفكري والجمالي والنفسي والانفعالي، فهي تجمع بين قطبين أساسين هما العقل والنفس ؛ لتحقيق الإقناع. لذا فإن القول الاستعاري يعد آلية حِجَاجية بلا شك.

وقد أوضح عبد القاهر وظيفة الاستعارة وبيان فضلها في عدة مواضع من الأسرار[١٠٣]

ويُعرف عبد القاهر الاستعارة بقوله :" اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون اللفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختُص به حين وُضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلًا غير لازم، فيكون هناك كالعاريَّة[١٠٤]".

ويقترب عبد القاهر في هذا التعريف مما ذهب إليه أصحاب النظرية الأسلوبية في نظرهم إلى الاستعارة نظرة لغوية محضة، بوصفها تركيبًا لغويًّا له خصائصه وسماته المميزة ، ودون النظر إليها من زاوية العلاقة بينها وبين التشبيه ، حيث يعرِّفونها بأنها: اختيار معجمي تقترن بمقتضاه كلمتان في مركب لفظي اقترانًا دلاليًّا ينطوي على تعارض، أو عدم انسجام منطقي؛ يتولد عنه بالضرورة مفارقة دلالية تثير لدى المتلقي شعورًا بالدهشة والطرافة ، وتكمن علَّة الدهشة والطرافة فيما تحدثه المفارقة الدلالية من مفاجأة للمتلقي بمخالفتها الاختيار المتوقع[١٠٥].

ففيما أشاروا إليه – من أن المفارقة الدلالية تكمن في نقل الخصائص من أحد عنصري المركب اللفظي إلى العنصر الآخر– هو تقريبًا ما عبر عنه الإمام عبد القاهر في تعريفه للاستعارة من أن "اللفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختُص به حين وُضع ، ثم يستعمله الشاعر أوغير الشاعر في غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلًا غير لازم،...".

وقد استقر تعريف السكاكي (ت ٦٢٦هـ) في كتابه (مفتاح العلوم) معتمدًا على ما أخذه من عبد القاهر الجرجاني ، كما تبلور التعريف عند القزويني (٩٣٧هـ) في كتابه (الإيضاح)[١٠٦]

وعرف الجمهور الاستعارة بأنها: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنيين الحقيقي والمجازي ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي[١٠٧].

ولا تصح الاستعارة إلا بحذف أحد طرفيها (المستعار منه أو المستعار له، مع وجه الشبه والأداة).

وتمتاز الاستعارة في الخطاب النبوي بجدتها واستمراريتها، يتأسّى بها البلاغيون والأدباء في كل عصر ؛ لأنها تعتمد على المحسوسات والتقريب بين المتباعدات ، بما يتلاءم مع طبيعة الفكر الديني القويم وغاياته النبيلة.

ومن الأبعاد الحِجَاجية في الاستعارة:

عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال : قال رسول الله(صلى الله عليه وسلم):إن اليدين تسجدان كما يسجدُ الوجهُ، فإذا وضعَ أحدُكمْ وجهَهُ فليضع يديهِ، وإذا رفعهُ فليرفعْهما[١٠٨]".

وفي حديث السّبعة الذين يظلُّلهم الله في ظلهيوم لا ظلَّ إلا ظلُّه : عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال :" ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها فلم تدر شماله ما أنفقت يمينه[١٠٩]".

يلفت الخطاب النبوي السابق إلى أمر لم ينتبه إليه المتلقون ، أو ربما لم يتخيلوه أو يتعذر عليهم تمثلها أو إدراك كنهها، وهو أن اليد كائن حيّ مستقلٌ بالتصرف ، فهي تسجد ، وتدري .

والبعد الحِجَاجِي هنا في ادعاء أن المستعار له هو نفسه المستعار منه؛ بغرض لفت الانتباه إلى قيمة هذا العضو ، واحترام ما يقوم به من عمل، بالتأكيد على جعل اليد بمفردها انسان له نفس صفاته، ويحمل نفس إرادته.

ومنه أيضًا :

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه- قال : مر النبي (صلى الله عليه وسلم) بامرأة تبكي عند قبر فقال :" اتقي الله واصبري" . قالت: إليك عني فإنّك لم تُصَب بمصيبتي، و لم تعرفه. فقيل لها : إنه النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فأتت باب النبي(صلى الله عليه وسلم) ، فلم تجد عنده بوّابين، فقالت: لم أعرفْكَ. فقال:" إنّما الصبر عند الصدمة الأولى[١١٠]".

استوقفني في هذا الحديث عدة رسائل:

١- أن الرسول(صلى الله عليه وسلم) لم يهتم بتعريف نفسه للمرأة المكلومة ، وإنما أراد تبليغ الرسالة مقتضبة لتبلغ الهدف منها " اتقي الله واصبري".

٢- حين زجرته المرأة لم يهتم ، و لم يتكبر ، و لم يتوعد، بل تركها وغادر، مقدرًا مشاعرها، وعدم التهوين من مصابها.

٣- حين ذهبت إليه (صلى الله عليه وسلم) لم تجد من يحرس بابه ، ولا حاجزًا يحجبها عن الوصول إليه، فكما كان مروره بلا حراس ، كان بابه كذلك.

٤- حين دخلت المرأة عليه (صلى الله عليه وسلم): لم تزد عن قولها (لم أعرفك)، فلم يعاتبها، أو يزجرها، أو ينتقص من فعلها.

٥- اتجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الهدف مباشرة بقوله :"إنما الصبر عند الصدمة الأولى".

إذن هذه هي الرسالة المراد إيصالها للمتلقي بلا غموض ولا حشو ولا تطويل في غير حاجة.

"إنما الصبر عند الصدمة الأولى" هي موضع الشاهد وبيت القصيد ، حيث تحمل بعدًا حِجَاجِيا يكمن في ادعاء أن المستعار له هو نفسه المستعار منه تأكيدا وتشديدا وقوة في إثبات هذا الاتحاد وتقرير أمر هو محل إنكار واعتراض من المتلقي.

وكان سبيله (صلى الله عليه وسلم) إلى ذلك – فضلاً عن الاستعارة – آليات تخدم المعنى وتقويه ومنها:

- التأكيد بـــ (إنّ) واسمية الجملة : وهذا يناسب حالة الإنكار التي كانت عليها المرأة ، وما عليه العرف وقتئذ.
- اسمية الجملة تفيد الثبوت والدوام لقيمة الصبر عند الصدمة الأولى، حينها يُكتب عند الله من الصابرين.
- استعارة لفظ (الصدمة) لأول حدوث المصيبة ، لأنها تصدم العقل والقلب والنفس . وأصل الصدم :ضرب الشيء الصُلب بمثله[١١١]. وهو تعبير دقيق عما يصيب العقل والقلب وقت حدوث المصيبة .

فالمستعار منه هو: ضرب جسم صلب بمثله ، و المستعار له ما يصيب القلب فجأة لحظة وقوع المصيبة . واللفظ المستعار هو الصدمة على سبيل الاستعارة التصريحية .

- العبارة الموجزة المقتضبة المركزة (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) هدف أراد الرسول (صلى الله عليه وسلم)إبلاغه رحمة ورأفة بالمرأة ؛ حتى لا يجتمع عليها مصيبتان : الهلاك ، وفقدان الأجر، لعلها تستغفر فيغفر الله لها ؛ لعدم علمها ، ولانصياعها لنصح الرسول (صلى الله عليه وسلم).
- وهكذا تحقق البعد الحِجَاجِي المؤثر في المتلقي من خلال التشخيص والابتكار في الصورة الاستعارية ، وأصابت الاستعارة موضعها حيث لم تكن الحقيقة تفي بالمراد في هذا الموقف.

وهكذا يكون للأبعاد الحِجَاجِية في الاستعارة ، والمجاز وغيرها من الصور دور في دفعها المتلقي إلى الإسهام في إنتاج جزء من الصورة ، ذلك هو الجزء الضمني غير الظاهر في الصورة سواء كان وجه الشبه أو المشبه أو المشبه به ، ويميز الخطاب النبوي في هذا الجانب كونه يوجه المتلقي مباشرة إلى المراد من الخطاب ، بحيث لا يجد أمامه إلا الاقتناع والتسليم.

- سادسًا : الأبعاد الحِجَاجِية للتصوير بالكناية .

الكنايةُ من أروع الألوان البيانية التي تعبر عن المعنى تعبيرًا موحيًا موجزًا ، وتمثيله عن طريق الإشارة بالحسي إلى المعنوي، ويعرفها البلاغيون بأنها: لفظ أُطلق وأُريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه.

وهي عند الإمام عبد القاهر : أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى ، على سبيل الاستدلال ، معنى ثانيًا هو غرضك ...[١١٢].

فالكنايةُ لونٌ من ألوان الغموض الفني حيث لا يُصرح فيها بذكر اللفظ الدال على الغرض المباشر ، بل بما يلزمه ؛ أي يكون للفظ دلالة أخرى يصل المتلقي من خلالها إلى المراد من اللفظ . وفي هذا تشويق للمتلقي ، واستشراف لمعرفة ما وراء المعنى.

وتكمن حِجَاجية الكناية في تركها للذهن مجالا لإقامة علاقات تؤدي في النهاية إلى الإقناع العقلي بالحقيقة التي يريد المخاطب إثباتها.

ومن الخطاب الكنائي للنبي (صلى الله عليه وسلم): عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول:"اتقوا النار ولو بشقِّ تَمْرةٍ[١١٣]".

أثار الخطاب النبوي السابق قضية هي محل تحقير من المتلقين ، يتعذر عليهم تصورها أو تمثل حسن عقباها ، ذلك لما يمثله " شق التمرة " من الضآلة والقلة ، بحيث يُتصور عدم فائدتها للمتصدق عليه.

فجاء الخطاب النبوي مُرَغِّبًا في الصدقة (ولو كان شق تمرة) كناية عن القلة والضآلة في كم والكيف ، فإنه وقاية له من النار، وهذا بُعدٌ حِجَاجي يحمل المرء على التدبر فيما لديه مهما كان حجمه أو مقداره فإنه عظيم عند الله ووقاية له من النار.

وفي سبيل سوق هذا البعد الحِجَاجِي بطريق الكنائية ، سلك الخطاب النبوي :

- طريق التشويق من خلال الأمر (اتقوا النار) ، مما يسترعي اهتمام المتلقي وجذب انتباهه في هذا الطلب الذي في ظاهره الأمر الملزم ، وفي معناه النصح والإرشاد ، أي تصدقوا ولو كان المُتَصَدَق به شق تمرة فإنها لكم نجاة ووقاية من النار.
- الحذف إيجازًا للعلم بالمحذوف ، وللوصول إلى الهدف من أقصر طريق ، أي ولو كان التصدق بشق تمرة. وذلك لغرابة الجملة بالنسبة للمتلقي ، الذي قد يملك القليل ، ولكن لا يتصدق به لاعتقاده بعدم جدواه للمتصدق عليه ، وعند الله تعالى. فجاء الخطاب النبوي يمحو فكرًا خاطئًا ، ويحل محله فكرًا جديدًا يصحبه تحفيز (الوقاية من النار)، وإنه لتحفيز قوي يقنع المتلقي للإقبال على الصدقة مهما كانت كمًا أو كيفًا ، وبنية خالصة لوجه الله.

وفي حديث آخر عن أبي ذر ، قال: قال لي النبي (صلى الله عليه وسلم):" لا تَحَقُرنَّ من المعروف شيئًا ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلْق[١١٤]".

وعن أبي هريرة قال: كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول:" يا نساء المسلماتِ، لا تحْقرَنَّ جارةٌ لجارتِها ، لو فِرْسِنَ شاةٍ[١١٥]".

وغيرها من الأحاديث النبوية الهادفة إلى عدم الاستهانة بما لديك مهما قل أو صغر ، فإن التصدق به عظيم عند الله.

وهذا مصداق قوله تعالى:" ... فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ [١١٦]".

ولا يستصغر المتصَدق عليه هذا المعروف ؛ فهو رزق ونعمة أنعمها الله عليه من حيث لا يدري ، ولعل فيها البركة التي يرجوها.

وهكذا يُلاحظ وضوح التصوير الكنائي في الخطاب النبوي ، مع نقاء اللفظ وترفعه عن فحش القول ، وإقناع المتلقي من خلال التفكر في المكنى عنه فيسهم في الكشف عنه فيكون مشاركًا فاعلا في الخطاب ومن ثَم يثبت المعنى بإثبات الدليل.

خاتمة :

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على النعمة المهداة نبي الرحمة (محمد بن عبد الله) وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين وبعد:

فهذه إطلالة موجزة على الأبعاد الحِجَاجية في الخطاب النبوي (الصورة أنموذجًا) ، وقد اعتمدت على شقين أساسين هما : الكشف عن البعد الحِجَاجي في كل صورة ، و الطرق التي سلكها الخطاب النبوي لإقناع المتلقي والتأثير فيه.

حيث توصلت الدراسة إلى عدة نتائج منها :

١- أن الخطاب النبوي عامة ، والتصوير خاصة خطاب حجاجي بامتياز.

٢- أن الخطاب النبوي يأخذ صفته الحوارية في كثير من الأحيان لمحاججة المتلقي ؛ من أجل تعديل فكر ، أو تغيير موقف أو بناء رأي جديد أ أو إزالة معتقد أو عرف قديم ، من خلال عدد من القرائن البلاغية واللغوية التي تخدم الغرض .

٣- المفاهيم والأدوات اللغوية والبلاغية التي استخدمها الخطاب النبوي في رسم الصور المختلفة لا تشكل بنية حِجَاجية في ذاتها ، بل من خلال السياق التفاعلي الموجودة فيه.

٤- أن الأبعاد الحِجَاجية في الخطاب النبوي تكمن في دفع المتلقي إلى المشاركة في إنتاج جزء من الصورة ، وهو الجزء الضمني أو المخفي منها وذلك من خلال المعطيات

المصرح بها في الصورة ، وأن المتلقي للخطاب النبوي يتجه مباشرة نحو المراد طائعًا مستسلمًا مع قناعة تامة بالحكم ، بعد إعمال الفكر والتدبر ، لا عن قناعة عمياء، على الرغم من ثقته بالمخاطب (صلى الله عليه وسلم) وأنه لا ينطق عن الهوى.

٥- أن الصورة بشتى ألوانها يؤتى بها للتأثير والإقناع .

٦- استوفى الخطاب النبوي- منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة وأربعين عامًا- قوانين الخطاب المصطلح عليها مؤخرًا وقبل وجود تلك البلاد المصدرة لنا تلك العلوم.

صلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وأخيرًا ، أرجو أن تكون الدراسة قد أجابت عن التساؤلات المطروحة في المقدمة ، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم.

٢- أساس البلاغة : (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ تح: محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

٣- الاستعارة عند المتكلمين .أحمد أبو زيد ، مجلة المناظرة .العدد ٤. الرباط .المغرب.١٩٩١م.

٤- أسرار البلاغة.أبي بكر ،عبد القاهر عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي. قرأه وعلق عليه:أبوفهر محمود محمد شاكر.مطبعة المدني . القاهرة-دار مدني. جدة. ط الأولى.١٤١٢هـ/١٩٩١م.

٥- أصول الحوار وتجديد الكلام ، طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي، المغرب ط٢، ٢٠٠٠، ص ٣١

٦- بحوث في السرد العربي ، مكتبة علاء الدين ، صفاقس (تونس) ٢٠٠٥م.

٧- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٦،
٨- البُعد الحِجَاجِي في أقصوصة " القلعة" لجمال الغيطاني ، مداخلة قُدّمت في إطار ندوة تحليل الخطاب المنعقدة بجامعة وهران السانية (الجزائر) في مايو٢٠٠٦م ، للدكتور ، محمد نجيب العمامي ، ، وصَدرت موسّعة في كتاب المؤلف الموسوم
٩- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب- القاهرة. ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م.
١٠- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول. د. محمد العمري. نشر : أفريقيا الشرق- المغرب.ط الثانية.٢٠١٢م.
١١- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها،د. محمد العمري. دار إفريقيا الشرق ، المغرب، ١٩٩٦م،
١٢- البيان والتبيين . أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .تحقيق وشرح عبد السلام هارون . مكتبة الخانجي. مصر، ومكتبة المثنى ببغداد.ط٢.، ١٣٨٠ هـ/١٩٩٧م.
١٣- التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)،آن روبول- جاك موشلار، ترجمة سيف الدين دغفوس .المنظمة العربية للترجمة. دار الطليعة للنشر والتوزيع . بيروت – لبنان . ط١ .٢٠٠٣م.
١٤- التصوير الفني في الحديث النبوي، د.محمد لطفي الصباغ، بيروت ، المكتب الإسلامي، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٤٨٨م
١٥- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور، ابن الأثير، تحقيق :د.عبد الحميد هنداوي
١٦- الجنى الداني في حروف المعاني ، الحسن بنن قاسم المرادي ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم الفاضل، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م

١٧- الحجاج في البلاغة المعاصرة ، بحث في بلاغة النقد المعاصر ، محمد سالم محمد الأمين طلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط٨، ٢٠٠١م

١٨- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ،

١٩- خزانة الأدب وغاية الأرب ، تقي الدين أبي بكر علي (ابن حجة الحموي) ، شرح: عصام شعيتو، منشورات دار الهلال، بيروت – لبنان ط١ ، ١٩٨٧م.

٢٠- الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق .خلود العموش .عالم الكتب .إربد. ط١ . ٢٠٠٨.

٢١- خصائص التراكيب(دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني)، د.محمد محمد أبو موسى.مكتبة وهبة.القاهرة.ط٧. د ت.

٢٢- الخطاب القرآني ، دراسة في العلاقة بين النص والسياق ، خلود العموش.عالم الكتب .إربد ، ط١ ، ٢٠٠٨ ،

٢٣- دراسات وبحوث في الفقه الإسلامي، فتحي الدّريني ، دار قتيبة ، دمشق ، ط١ (د.ت).

٢٤- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني. قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر.مكتبةالخانجي. القاهرة. د ت.

٢٥- دليل الناقد الأدبي. د. ميجان الرويلي ، وسعد البازعي. المركز الثقافي العربي.بيروت.ط٢،٢٠٠٠م.

٢٦- سنن أبي داوود : سنن أبي داود(أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط المكتبة العصرية، صيدا - بيروت

٢٧- سنن الترمذي : محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تح:أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة

مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر . ط: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

٢٨- سنن النسائي : (المجتبى من السنن): أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ) تح: عبد الفتاح أبو غدة : رقم الحديث ٢٢٢٤ ، كتاب الصيام.، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب . ط الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦.

٢٩- شرح المفصل ، ابن يعيش ، عالم الكتب، د.ت.

٣٠- شرح النووي على مسلم . يحي بن شرف أبو زكريا النووي. دار الخير. د.ط ،١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٣١- الصحاح في اللغة : (تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت ط الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

٣٢- ـ صحيح البخاري :محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي تح: محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) رقم الحديث ١٤٢٠ ، كتاب الزكاة .ج٢، ص ١١٠ ط الأولى، ١٤٢٢هـ

٣٣- صحيح مسلم : (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) : مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) تح: محمد فؤاد عبد الباقي ، رقم ٢٤٥٢ ، كتاب فضائل الصحابة دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٣٤- الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث ، د. بشرى موسى صالح ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م.

٣٥- : الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، د. علي البطل ، دار الأندلس ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٠م.

٣٦-علم البيان (دراسة تحليلية لمسائل البيان) د.بسيوني عبد الفتاح فيود ،مؤسسة المختار للنشر القاهرة – ط٤. ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

٣٧-علم المعاني ، (دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني) د.بسيوني عبد الفتاح فيود ،مؤسسة المختار للنشر القاهرة – دار المعالم الثقافية الأحساء. السعودية. ط١. ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٣٨-عمل النفي وخصائصه الدلالية في العربية ، أطروحة دكتوراه، إشراف د. حسين الواد .كلية الآداب .منوبة .تونس ٢٠٠١م.

٣٩-فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أبو الفضل شهاب أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، محب الدين الخطيب، دار الكتب السلفية، المكتبة الوقفية ، ط١.

٤٠-الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري .تحقيق:حسام الدين القدسي.دا الكتب العلمية. بيروت. لبنان، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٤١-في النص الأدبي (دراسات أسلوبية إحصائية) ، د. سعد مصلوح ، عالم الكتب ، ط٣ ، ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م ، .

٤٢-القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ تح مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة

٤٣-كشاف مصطلحات الفنون والعلوم ، التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة د. رفيق العجم ، تحقيق د. علي دحروج ،مكتبة لبنان ، ط١، بيروت -١٩٩٦م.

٤٤-: لسان العرب لابن منظور : محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) . دار صادر – بيروت . ط: الثالثة - ١٤١٤ هـ

٤٥-لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) ،محمد خطابي، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، ١٩٩١م.

٤٦-محاضرات في علم الأصوات ، د. فاتن خليل حجازي

مسند أحمد : مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ تح: أحمد محمد شاكردار الحديث – القاهرة ط: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

٤٧-المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، دومينيك مونقانو، ترجمة : محمد يحياتين ،منشورات الاختلاف- الجزائر، ط١ ، ٢٠٠٠م.

٤٨-معجم السرديات ، محمد القاضي وآخرون ، دار الفارابي. لبنان- دار العين .مصر.ط١ ، ٢٠١٠م.

٤٩-المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ط٣ ، (د.ت)،

٥٠-المغني في تصريف الأفعال ، الشيخ.: محمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ، دار الحديث ، ط٣ ، ١٣٨٢هـ /١٩٦٢م

٥١-مقاييس اللغة : أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) ، تح عبد السلام محمد هارون دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

٥٢-النظرية الحِجَاجِية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية ، محمد محمدطروس ،دار الثقافة – الدار البيضاء ، المغرب ، ط١ ،٢٠٠٥م.

٥٣-النقد التحليلي ، محمد محمد عناني ، نشر الأنجلو المصرية ، د.ت ،

٥٤-النُّكت في إعجاز القرآن . ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني ، تحقيق محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام، ، دار المعارف – القاهرة .د ط.

الهوامش

[11]- يُلحظ من استقراء تعريفات البلاغة في التراث النقدي القديم اشتراكها في إدراك البعد الإقناعي للخطاب البلاغي ، ومنها قولهم: إنها " قصد للحجة " أو " كشف ما غمض ، أو إيضاح ما خفي بقصد التأثير في السامع" ، ينظر: التفكير البلاغي عند العرب (أسسه وتطوره إلى القرن الساد الهجري) حمادي صمود ،ص ١١٠- ١١٢ ، وقول الجاحظ في بيانه " جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواقع الفرصة "، ينظر البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ،١/٨٨.

[2]- ينظر : البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ، د. محمد العمري ، ص ١٢.

[3]- لسان العرب لابن منظور : محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) . دار صادر – بيروت . ط: الثالثة - ١٤١٤ هـ مادة (حجج).

[4]السابق نفسه .

[5]- ينظر الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري ،١/١٥٨

[6]- ينظر : الخطاب القرآني ، دراسة في العلاقة بين النص والسياق ، خلود العموش ، عالم الكتب ، إربد ، ط١ ، ٢٠٠٨ ، ص ١١٣- ١١٦

[7]- السابق ص ١٢٢.

[8]- الخطاب القرآني ، خلود العموش ، ١٤٥

[9]- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٦، ١/٧١٠

[10]- خزانة الأدب وغاية الأرب ، تقي الدين أبي بكر علي (ابن حجة الحموي) ، شرح: عصام شعيتو، منشورات دار الهلال، بيروت – لبنان ط١ ، ١٩٨٧م، ١/٣٤٦.

[11]- د. طه عبدالرحمن أحد أبرزالفلاسفة والمفكرين في مجال التداول الإسلامي العربي منذ بداية السبعينات من القرن العشرين. ، ولد طه عبدالرحمن بمدينة الجديدة المغربيةعام ١٩٤٤م،وقام بتدريس المنطق وفلسفةا للغة في جامعة محمد الخامس بالرباط منذ ١٩٧٠ إلى حين تقاعده عام ٢٠٠٥.وهو:عضوفي "الجمعيةالعالمية للدراسات الحِجَاجِية " وممثلهافي المغرب ،وعضوفي "المركزالأوروبي للحِجَاج"،وهورئيس منتدى الحكمة للمفكرين والباحثين بالمغرب. حصل على جائزة المغرب للكتاب مرتين،ثم على جائزة الإسيسكوفي الفكرالإسلامي والفلسفةعام ٢٠٠٦، كما حصل على جائزة محمدالسادس للفكروالدراسات الإسلامية في ١٣ يناير ٢٠١٤م.وتتميزممارسته الفلسفية بالجمعبين "التحليل المنطقي" و"التشقيق اللغوي" والارتكازإلى إمدادات التجربة الصوفية،وذلك في إطارالعمل على تقديم مفاهيم متصلة بالتراث الإسلامي ومستندة إلى أهم مكتسبات الفكرالغربي المعاصرعلى مستوى " نظريات الخطاب" و"المنطق الحِجَاجِي" و" فلسفةالأخلاق" ، الأمرالذي جعله يأتي بطريقة في التفلسف يغلب عليها التوجه "التداولي" و"الأخلاقي".

[12]- ينظر : أصول الحوار وتجديد الكلام ، طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي، المغرب ط٢، ٢٠٠٠، ص ٣١

[13]- ينظر : الحجاج في البلاغة المعاصرة ، بحث في بلاغة النقد المعاصر ، محمد سالم محمد الأمين طلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط٨، ٢٠٠١م ،ص٢١٦.

[١٤]- فنجده قبل الرد على الطاعنين في القرآن يقوم بتصنيف مطاعنهم ، ثم الرد عليها جمالًا من خلال أربعة أبواب: باب الرد عليهم في أبواب القراءات، باب: ما ادعي على القرآن من اللحن ، باب: التناقض والاختلاف، باب: المتشابه . ينظر :الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد الأمين ، ص٢٦١ وما بعدها.

[١٥]- ينظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، د. محمد العمري ، دار إفريقيا الشرق ، المغرب، ١٩٩٦م،ص١٤٣.

[١٦]- النظرية الحِجَاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية ، محمد محمدطروس ،ص ١٤

[١٧]- ينظر: كشاف مصطلحات الفنون والعلوم ، التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة د. رفيق العجم ، تحقيق د. علي دحروج ،ط١ ، ٦٦٢/١.

[١٨]- ينظر : الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، عبد الله صولة ، ص ٢٧

[١٩]- الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث ، د. بشرى موسى صالح ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م، ص١

[٢٠]- ينظر : النقد التحليلي ، محمد محمد عناني ، نشر الأنجلو المصرية ، د.ت ، ص٥٩.

[٢١]- ينظر : الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، د. علي البطل ، ط١، ص١٥ .

[٢٢]معجم السرديات ، محمد القاضي وآخرون ،ص ٥٢-٥٣.

[٢٣]- ينظر: دليل الناقد الأدبي ، د. ميجان الرويلي ، وسعد البازعي ، ط٢ ، ص ٨٩.

[٢٤]- صحيح مسلم : (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) : مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) تح: محمد فؤاد عبد الباقي ، حديث رقم ٢٦٠٨ ، كتاب البر والصلة والآداب . حابة دار إحياء التراث العربي – بيروت

[٢٥]- ينظر : أساس البلاغة ، للزمخشري ، ج١ ، مادة رقب ، وفي المقاييس ، ترقبه لعله يبقى لها. ينظر مقاييس اللغة ، ابن فارس ، مادة رقب.

[٢٦]- ينظر : شرح النووي على مسلم ، د.ط ، حاشية رقم١ ص ١٢٤

[٢٧]- الكهف ٤٦ .

[٢٨]- لسان العرب مادة حور

[٢٩]- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ط٣ ، (د.ت)، ٢١٢/١

[٣٠]- ينظر : عمل النفي وخصائصه الدلالية في العربية ، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب ، منوبة ، تونس ٢٠٠١م ، ص ١٧٢.

[٣١]- شرح المفصل ، ابن يعيش ،عالمالكتب،د.ت.٨/ ١٠٧ .

[٣٢]- الأنعام ١٣٥

[٣٣]-ينظر: عمل النفي وخصائصه الدلالية في العربية ، ص ١٧٢ ,ما بعدها .

[٣٤]-الشمولية أحد قوانين الخطاب الناجح ويقصد به الإحاطة الشاملة والكاملة بالموضوع ضمانًا لنجاح الحوار ، مع إعطاء المتلقي كل المعلومات المناسبة له، وأما قانون الإفادة ، فيكون حيث يتلقى المخاطب معلومات جديدة لم يدركها

من قبل ... وهو أكثر القوانين الخطابية ثراء وفائدة . ينظر: التداولية اليوم (علم جديد في التواصل) ، ، آن روبول- جاك موشلار ، ترجمة سيف الدين دغفوس ، ط١، ص ٢٧٠.

[٣٥]- صحيح مسلم ، حديث رقم ٢٥٨١، كتاب البر والصلة والآداب.

[٣٦]- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ص٨٥، ٨٦.

[٣٧]- ينظر : المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، دومينيك مونقانو، ترجمة : محمد يحياتين ، ط١ ، ص ١٢٦.

[٣٨]- صحيح مسلم حديث رقم ٢٥٥٣، كتاب البر والصلة والآداب .

[٣٩]- أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٤٢/٢ ، مادة فهم.

[٤٠]- يكون ذلك باحترام ومراعاة المقام ، وتكييف السياق بحسب فكر المتلقي ورعايته ، ويكون الخطاب فيه واصفًا ومختصرًا في تقديم المعلومة بشكل مباشر. يُنظر: تدريسية النصوص ، تأليف نخبة من الأساتذة ، د.ط ، ٨/٢

[٤١]- القاموس المحيط ، مادة أثم .

[٤٢]- الطباق المعنوي : تسمية الشيء بما يتعلق بمقابله.

[٤٣]- القاموس المحيط ولسان العرب مادة برر.

[٤٤]- الصحاح في اللغة مادة برر.

[٤٥]- مقاييس اللغة مادة أثم

[٤٦]- البقرة ٢٨٤ .

[٤٧]- سنن الترمذي ، : محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تح:أحمد محمد شاكر وآخرون، حديث رقم ٢٣٢٠، أبواب الزهد ، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل.شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر . ط: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م حديث رقم ٢٣٢٠، أبواب الزهد ، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل.

[٤٨]- الحجج الاستقرائية لا يمكن تصنيفها بأنها سليمة أو غير سليمة؛ لأنها تعتمد على الاحتمالية فقط، وبالتالي لا يمكن أن تصنف الحجج الاستقرائية كحجج جيده ولكن لا يمكن تصنيفها بأنها حجج سيئة أيضاً. وتستعمل الحجج الاستقرائية طريقة التفكير الاستقرائية في المجال العلمي بكثره، خصوصاً في تكوين النظريات العلمية التي يصعب التيقن منها. أما الحجج الاستنباطية يكون استعمالها جيد في حال امتلاكنااعتقاد قوي بصحة معطياتنا.(منتدى الفلسفة والمنطق) . https://www.facebook.com

[٤٩]- الأنبياء : ٣٠

[٥٠]- من خصائص الكلام البشري قدرة الإنسان على التلاعب به ، بحيث يستعمل (الغموض، المغالطة ، الكذب) ويحكم على صدقها بمدى مطابقتها للحالة المذكورة أو عدم مطابقتها، لذا كان الصدق ضرورة للحكم على جودة الخطاب .ينظر : التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، ص٢٦٦ وما بعدها.

٥١-الأَوْرَقُ: الأَسمر، والوُرْقة السمرة، يقال: جمل أَوْرَقُ وناقة ورقاء ، لسان العرب ، مادة ورق .

[٥٢]- صحيح مسلم ، حديث رقم١٥٠٠ كتاب اللعان. وبإسناد آخر زاد في آخر الحديث (ولم يرخص له في الانتفاء منه)

[٥٣]- الحديث الأول (الأبعاد الحِجَاجية للتصوير بالوصف) ، حديث الصرعة والرقوب.

[٥٤]- ينظر : التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، ص ٢٧٣.

[٥٥]- متفق عليه ، وينظر : رياض الصالحين ص ١٠٤٥ .

[٥٦]- قاب القوس : مقدار ما بين المقبض والسية من القوس .

[٥٧]- سنن الترمذي ، حديث رقم٢٤٥٠، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع.

[٥٨]- آل عمران ١٤

[٥٩]- فإذا تسرب الشك إلى ذهن المتلقي في جدية الخبر ،فشل الخطاب ، وضاعت الحجة .

[٦٠]- صحيح مسلم ، حديث رقم ٢٦٩٥ ، كتاب الذكر والدعاء ، والتوبة والاستغفار.

[٦١]- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي . تح: محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) حديث رقم ٤١٧٧ ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية. ثم قرأ (صلى الله عليه وسلم): " إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا" الفتح ١ . ط الأولى، ١٤٢٢ه.

[٦٢]- صحيح البخاري ، حديث رقم ٦٣١١ ، كتاب الدعوات .

[٦٣]- التكرار الأسلوبي يكون من خلال تكرار الحرف ، أو الكلمة أو الجملة أو الجمل ، وهوأحد الآليات اللغوية والبلاغية للحجاج ، ومن عوامل التثبت والإيضاح ، ومن عناصر الإقناع وإقامة الحجة ،وهو شكل من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي أو ورود مرادف له أو شبه مرادف ، وتكمن حِجَاجية التكرار في إعادة اللفظ أو معناه ، فهو بقدر تأكيده للمعنى يؤدي وظيفة حِجَاجية فاعلة. ينظر : لسانيات النص ، محمد خطابي ، ص ٢٤

[٦٤]- ينظر : علم المعاني (دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني) ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، ص١٨٨

[٦٥]- سنن الترمذي ، حديث رقم ٣٥٣٧ ، أبواب الدعوات .

[٦٦]- المقطع الصوتي: هوكل جزء منطوق من أجزاء الكلمة نتيجة إخراج دفعة هوائية من الرئتين يستريح عند نطقها النفس سواء كان ذلك الجزء المنطوق ينتهي بإغلاق تام لجهازالنطق أو بإغلاق جزئي. وأقسام المقاطع: ١ـــالمقطع المنفتح: وهوالذي ينتهي بحركة قصيرة مثل(كَتَبَ) أوينتهي بحركة طويلة مثل (في). ٢ـــالمقطع المنغلق: وهوالذي ينتهي بحرفٍ صامت مثل (من) أوينتهي بحرفين مثل(بنت)عندالوقف=

= وهناك تقسيمٌ آخر للمقاطع من حيث المدى هو: ١ـــ المقطع القصير :وهوالذيينتهيبحركةقصيرةوهذايغنيانكلمقطعقصيريكونمنفتحا. ٢ـــالمقطعالطويل: وهوالذيينتهيبحركةطويلةمثل (في)اوينتهي بحرف مثل (من).

ومقاطع اللغة العربية ثلاثة أنواع رئيسة: أـــ مقطع قصيرمنفتح يتكون من صامت زائد حركة مثل (علم).

ب ـــمقطع طويل مغلق بحركة قصيرة يتكون من :صامت زائد حركة زائد صامت مثل(من) . جـــ مقطع مديد مقفل بصامتين ويتكون من صامت زائد حركة زائد صامت زائد صامت مثل(بنت).ينظر : محاضرات في علم الأصوات ، د. فاتن خليل حجازي ص٨٥

[٦٧]- تناجشوا: في المقاييس النون والجيم والشين أصل صحيح يدل على إثارة الشيء ، وفي اللسان نجش الحديث إذاعته ، ينظر : مقاييس اللغة ولسان العرب مادة نجش.

[٦٨]- صحيح مسلم ، حديث رقم ٢٥٦٣، كتاب البر والصلة والآداب.

[٦٩]- صحيح مسلم ، ٢١٠/٨، رقم ٢٩٥٦، كتاب الزهد والرقائق

[٧٠]- آل عمران ١٨٥

[٧١]- آل عمران ١٤

[٧٢]- ينظر : الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، عبد الله صولة ص٥٤٥

[٧٣]- النكت في إعجاز القرآن . ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني ، تحقيق محمد خلف الله زغلول سلام، ص٨٠

[٧٤]- سنن النسائي : (المجتبى من السنن): أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـــ) تح: عبد الفتاح أبو غدة : رقم الحديث ٢٢٢٤ ، كتاب الصيام.، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب . ط الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

[٧٥]- في اللسان : جَنَّ الشيء يجُنُّه جنًّا : ستره.

[٧٦]- ينظر : الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، ص٥٥٦

[٧٧]- الجامع الكبيرفي صناعة المنظوم من الكلام المنثور، ابن الأثير، تحقيق :د. عبد الحميد هنداوي ،ص ٩٠

[٧٨]- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، ص ٩٥ .

[٧٩]- السابق ، ص ١١٥.

[٨٠]- استهموا : اقترعوا ، الصحاح في اللغة ، مادة سهم.

[٨١]- صحيح البخاري ، حديث رقم ٢٤٩٣،كتاب الشركة.

[٨٢]- ينظر : دراسات وبحوث في الفقه الإسلامي، فتحي الدّريني ، دار قتيبة ، دمشق ، ط١ (د.ت)، ٦٤/٦٣/١.

[٨٣]- آل عمران ، ١٣٩

[٨٤]- ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني ، الحسن بن قاسم المرادي ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم الفاضل، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٣ هـــ/١٩٨٣م ، ص ٤٧٦.

[٨٥]- السابق ، ص ٢٥٠

[٨٦]- علم المعاني ، (دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني)،١/ ١٧٧، وخصائص التراكيب ، د، محمد محمد أبو موسى ، ص ٢٥٧ .

[87]- ينظر : المغني في تصريف الأفعال ، أ. محمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ، دار الحديث ، ط٣ ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، ص ١٣٧ .

[88]- ينظر: علم المعاني ، (دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني)،١/ ١٩١

[89]- ينظر : التصوير الفني في الحديث النبوي، د.محمد لطفي الصباغ، بيروت ، المكتب الإسلامي، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٤٨٨م ، ص٤٢٧

[90]التكرار أحد الآليات اللغوية والبلاغية للحجاج ، وهو من عوامل التثبت والإيضاح ، ومن عناصر الإقناع وإقامة الحجة ،وهو شكل من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي أو ورود مرادف له أو شبه مرادف ، وتكمن حِجَاجية التكرار في إعادة اللفظ أو معناه ، فهو بقدر تأكيده للمعنى يؤدي وظيفة حِجَاجية فاعلة.(سبق ذكره في هذا البحث) ينظر : لسانيات النص ، محمد خطابي ، ص ٢٤

[91]- أسرا البلاغة ص ٣٥١

[92]- السابق ص ٣٥٢

[93]- صحيح مسلم : (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) : مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)

تح: محمد فؤاد عبد الباقي ، رقم ٢٤٥٢ ، كتاب فضائل الصحابة دار إحياء التراث العربي – بيروت ، وفي صحيح البخاري ، وسنن النسائي ، ومسند أحمد : "كانت سودة أسرعنا به لحوقًا "

[94]- ينظر: أسرار البلاغة ، ص ٣٥٢و٣٥٣.

[95]- صحيح البخاري : رقم الحديث ١٤٢٠ ، كتاب الزكاة .ج٢، ص ١١٠

[96]ينظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ،ابن حجر العسقلاني ، ٢٨٨/٣.

[97]- سنن الترمذي ، رقم ١٦٣٩ ، أبواب فضل الجهاد عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

[98]- سنن الترمذي ، رقم ٢٣٤٦ ، باب الزهد.

[99]- مقاييس اللغة ، ابن فارس ، مادة مس.

[100]التوشيع نوع من الإيضاح بعد الإبهام ، ويعني : أن يؤتى في عجز الكلام (غالباً) بمثنى مبهم (عينان) مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر.

[101]- ينظر : الاستعارة عند المتكلمين ، أحمد أبو زيد ، مجلة المناظرة ، العدد ٤، ، الرباط ، المغرب ، ١٩٩١م ، ص ٤٦، ٤٧.

[102]- أسرار البلاغة ، ص ٤٢.

[103]- السابق ص ٤٣.

[104]- العاريّة : بتشديد الياء ، وجمعها (عواريّ) بتشديد أيضًا، كأنها منسوبة إلى (العار) ؛ لأن طلبها عارٌ وعيب، ويقال لها : (العارةُ) أيضًا ، وهو اسم من (الإعارة) ، يقال : أعرته الشيء إعارةً وعارَة ... والذي في المخطوطة: " كالعارة" ، وهما سواء . أسرار البلاغة ، ص٣٠

[١٠٥]- يُنظر : في النص الأدبي (دراسات أسلوبية إحصائية) ، د. سعد مصلوح ، عالم الكتب ، ط٣ ، ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م ، ص١٩٤ .

[١٠٦]- ينظر : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م ،١/ ٣-٧ ، ٣/٩٠.

[١٠٧]- ينظر : علم البيان (دراسة تحليلية لمسائل البيان) د.بسيوني عبد الفتاح فيود ،مؤسسة المختار للنشر ، ط٤، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ص ١٥٥.

[١٠٨]- سنن أبي داوود ، سنن أبي داود(أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، حديث رقم٨٩٢ ، كتاب الصلاة. ط المكتبة العصرية، صيدا - بيروت

[١٠٩]- صحيح البخاري ، حديث رقم٦٦٠ ، كتاب الأذان .

[١١٠]- صحيح البخاري ، حديث رقم ١٢٨٣ ، كتاب الجنائز.

[١١١]- مقاييس اللغة ، مادة صدم.

[١١٢]- ينظر : دلائل الإعجاز ، ص ٢٦٢.

[١١٣]- صحيح البخاري ، حديث رقم ١٤١٧ ، كتاب الزكاة .

[١١٤]- صحيح مسلم ، حديث رقم ٢٦٢٦ ، كتاب البر والصلة والآداب.

[١١٥]- صحيح البخاري ، حديث رقم ٦٠١٧ ، كتاب الأدب ، قال ابن سيدة : الفرسِن : طرف خف البعير ، لسان العرب ، مادة فرس.

[١١٦]- الزلزلة آية ٧